برجولا

بهاء المري

الناشر : مركز ليفانت للدراسات الثقافية والنشر.

الإسكندرية .. مصر

أودونيس للثقافة والنشر .. ريف دمشق .. سوريا.

Levant.egsy@gmail.com

الاسكندرية ٤٤ شارع سوتر، أمام كلية الحقوق

هاتف / ٤٨٣٠٩٠٣ / ٠١١١٤٣٩١٦٠٠

اسم الكتاب : برجولا "قصص قصيرة"

المؤلف : المستشار / بهاء المري.

رقم الإيداع: ٢١٦٠٤

الترقيم الدولى: ٧ – ٢٢ – ٦٦٥١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

التجهيزات الفنية :

كتابة كمبيوتر وتنسيق: المؤلف.

الطباعة: مطبعة سامي بالأزاريطة .. الإسكندرية

تليفون/ ٤٨٧٠٧٩٩ / ٠١٢٢٣٧٤٣٢٨١

جميع حقوق المؤلف محفوظة

برجولا

بهاء المري

بهاء المري

برجولا

مجموعة قصصية

٢٠١٩

برجولا

الإهداء

إلى مَن حيَّرتْ قلبي غَرابتُها
وأَجهدتْ أسرارُها عقلي

انتصار حُب

تُفكِّر ساهمةً فيما صارَتْ إليه، أكُلُّ هذه الثروة بلا فائدة؟ أمْ أنَّ الأطبَّاء مُتواطئونَ عليَّ؟ أليسَ مِن بينهم مَن يُعطيني أملاً فى الشفاء؟ أمِنَ المعقول أنتظرُ موتي؟ ولا تُجدي ثروتي فى شِفائي؟ تبًا لهم جميعًا، سأُعاندُ القدَرَ وأرفضُ عِلمهم الواهن سأستمتعُ بما تَبقَّى لىَ من عُمري ولو سُوَيْعاتٍ قليلة.

تتحدَّى مَرضها، تُغادر قَصرها وتُقيم فى فندق بعيدًا عن أوجاعها، تنطلق صباحًا على الرغم من وهَنِها؛ تقصد المتنزهات؛ تُلاعب الأطفال، ثم تعود مُنهَكة القُوَى إلى سكنِها الجديد، وفي فِراشها تزْداد آلامها؛ فتتحايل عليها بالمسكِّنات، وفى بعض الأحيان بالأدوية المخدِّرة.

تُصِرُّ على ما تَفعل وكأنها تَستعجل الإجهاز على هذا القلب الذى يُعييها، ترتاد صالة الديسكو، تقف على بابها، الحركة صاخبة، شبابٌ وشابَّات يرقصون بعنف؛ وفى سعادة بالغة، تتساءل:

- لِمَ لا أفعل كما يفعلون... ؟

لحِقَت بهم دون تفكير، شاركَتْهم اللهو والحركة، تَصبَّبَ العَرَق من جَبينها، تَلاشَى وعيها؛ وسقطت مَغشيًا عليها.

تَوقّفتْ الموسيقَى الصَّاخبة، جَمعٌ من الشباب الرَّاقص يَتحَلَّق حولها، جاءوا بزجاجة عِطر، نَفثوا منها قُرب أنفها فى محاولة لإفاقتها.

ملاكٌ يُرفرفُ طيفُه فوق رأسها، تشعر بمنديل ورقيّ يمتصّ عرقها المُتصبِّب من جبينها، تَزوغ عيناها، ترى كل شيء من حولها؛ ولا شيء فى آنٍ واحد؛ كأنه حُلمٌ مُتداخل الأحداث، تروح بعدها فى نَوبة فقدان الوعي.

تَفيق، تَلمح هذا الملاك .. كان يَجسُّ نبضها، يرافقها وهو يُحيط كتفها بذراعه، يتوجَّه معها – وآخرون – إلى غرفتها يَظلّ واقفًا حتى تستردَّ أنفاسها، يُراجع أدويتها، ويركنها جانبًا؛ ثمّ تشير إليه فيجلس على مقعد بجوار السرير، كان على مَشارف الأربعين، وسِيم، بَهيّ الطَّلعة باسِم الثَّغر، عرَّفها بنفسه:

ـ طبيبٌ مصريّ، أعمل فى الخارج، ومن نُزلاءِ هذا الفندق أقضي إجازتي السنوية كما اعتدتُ كل عام.

تسأله بصوت واهن:

ـ لِمَ أنقذْتني من الموت؟ يَمسح على رأسها، ويُغادرها بابتسامةٍ رقيقةٍ.

تعُود إلى الكافتيريا في الليلة التالية، تجدهُ هناك، اقتربَ منها يسألها عن أحوالها، تُجيب بصوتٍ خَفيض :

ـ أنا بخير.

يَعرض عليها الجلوس فى الهواء الطَّلق خارج البناء المُغلق؛ فتُوافق، نسَماتٌ رطْبة تَسْري فى الجوّ، ترْتعد، يَسحَب غطاءً من فوق منضدة؛ ويَضعه على كتفيها، يَسندها كما فَعَل بالأمس ويذهب بها إلى الغرفة.

جلسَتْ برفقٍ على حافة السَّرير؛ ثم استوَتْ عليه، مدَّت ساقَيْها والتحَفَتْ غطاء خفيفًا؛ أسندَتْ ظهرها إلى الخلف وجلس هو على مقعد مجاور، وجدها فرصة سانحة ليتعرَّف إليها، نظرَ اليها مُبتسمًا فبادلتْهُ الابتسامة، قال بصوتٍ هادئ حنون:

ـ سألْتِني أمس لماذا أنقذْتُكِ؟ قُولي أنتِ لماذا ترفُضين الحياة؟

تعتدلُ فى جلستها قليلاً ناصبةً ظهرها بعض الشيء تُجيب بوَهن:

ـ وما فائدة الحياة وأنا وحيدة؟ هل جرَّبتَ إحساسى وأنا في العشرين وأفقدُ الأب بعد الأمّ، وقد كان يَمنحني كل ما أتمنَّاه؟ ثم لا أجدُ قريبًا ولا صديقًا من حولي؟ وبعد كل هذا يعتلُّ قلبي، ولا يكون له من علاج؟ هل استَحْضرْتَ عجزيَ

التَّام عن فِعل شيء وأنا أمْلكُ مالًا وفيرًا؟ هل جرَّبتَ إحساس عاجزة عن إعادة عافيتَها أو شيئًا من مُتع الحياة؟ هل تخيَّلتَني - على الرغم من ثرائي - أن يُجبرني الأطباء على الموت؟ فلِمَ إذن الحياة؟

تصمَتُ لبُرهة، يُومئ لها لتُكمل:

ـ فى حياة أبي كانت أجنحة الأمل تُرفرف على حياتي، وهبني كلّ ما تتمناه فتاة مثلي، وحيدة أبيها الثريّ، التى استحوذت على حنانه الذي فاق حنان البشر أجمعين.

كنتُ لا أتخيّل أن الحرمان من أيّ شيء قد يطالني، وبعد كل هذا يقولون الزمي السرير؟ يحرمونني حتَّى من الحركة؟

على الرغم من ملاحظته عينيها الزائغتين وانكسار خاطرها، بدَتْ له مُفعمة بالأمل والرجاء، كانت تُردِّد عباراتها المتلاحقة وهي تعاند دموعها، لم يُرد لها أن تسترسل أكثر تحت وطأة هذا الألم النفسي، قاطَعها :

ـ نظرَتُكِ للحياة والموت ليست صحيحة، حتى لو فقدنا جزءًا من الصحة أو أقرب الأحباء، سنُقابل حتمًا من يُحفّزنا على الحبّ، أرى في عينيك إيمانًا به، وطاقة للحياة ورجاء بالشفاء.

كلماته جعلت تيارًا رطبًا من الطُمأنينة يسري فى أوصالها، هزَّت رأسها قليلاً، وابتسمَتْ.

رَبَتَ على كَتفها برفق؛ وأعطاها بطاقة مدونًا بها رقم هاتفه وانصرَفَ على وعدٍ بلقائها.

زاغ بصرها، أحسَّت بصدَى صوته وهدوء نبراته تَتردَّد فى أرجاء المكان، استحْضرَت نظراته الحانية، لم تدرِ لماذا لاحظَتْ في عينيه انجذابًا نحوها بشكل ظاهر البيان؛ كما لم تدرِ لماذا تشعرُ نحوه بانجذابٍ شديد، وباتَتْ ليلتها تحلم بما يَجري كأنه شريط سينيمائي لقِصة هادئة المُجريات.

استيقظَتْ من نومها، التقطَتْ البطاقة من فوق المنضدة أمسكَتْ هاتفها النقَّال، تردَّدتْ في طلبِه، أعادَت البطاقة إلى موضعها، مدَّت يدها إليها مرَّة أخرى، سمِعَتْ طَرقًا خفيفًا على باب الغرفة، أخفَتْ هاتفها توجُّسًا، ظنَّته أحد عُمَّال الفندق فتظاهرَت بالنَّوم، وحينما شَخصَتْ نحو الباب لمحَتْ وجهه فنهضَتْ من سريرها.

دخلَ وقد ارتسمَتْ على شفتيه ابتسامة رائقة، أبصر فى وجهها نضارة لم يَلْحظها فى الأيام السابقة، اطمأنَّ على أحوالها وغادَرها على أمل اللقاء.

توجَّهَتْ إلى صالة الاستقبال ليلاً؛ استقبَلها بوُدِّه المعهود، تأبَّطت ذراعه؛ وسارا الهُوْيْنَى فى الحديقة المُلحقَة بالفُندق، بَلغَا رُكنًا خافِت الأضواءِ هادئًا، أجْلسَها إلى

جواره، رفعَت عينيها نحو عينيه، كان فى ذات الوقت ينظر إليها، التقت أعينهم على حين غرة، ضحكا، ثم لفَّهما صمتٌ عذب من جديد.

بادرها بالحديث:

ـ قولي شيئًا.

تَضحَك ضحكة خفيفة وقد علَتْ وجهها حُمرةٌ ملحوظة:

ـ قُل أنتَ.

ازدادتْ مساحة ابتسامته، تهلَّل وجههُ أكثر، أعاد عليها ذات العبارة:

ـ بل قُولي أنتِ.

ضحكا معًا مرة أخرى، أطرقَت، ثمّ عادت ترفع وجهها وتسأله بصوت خفيضٍ حنون:

ـ لِمَ أنقذْتَني؟

ـ لقد أخطأتْ... هل تُسامحينني؟

ـ وكأنّكَ تريدني أن أموت؟

ـ هكذا فهمتُ منكِ.

اتَّسعَت ابتسامتها لتُضيء وجهها أكثر من ذي قبل، مدَّ يده برفق إلى أسفل ذقنها، رفع وجهها إليه، تقابَلت نظراتهما، همسَ بأذنها:

ـ شعرتُ أنَّ القدَر ساقكِ إليّ، أنتِ التي كنتُ أبحثُ عنها دون أن أعرفها، لم أشعُر من قبل بما شعرتُه من أمانٍ فى عينيكِ، وراحة بالغة فى النَّظر إلى وجهِك الجميل.

تسارَعَت دقَّاتُ قلبها، وعادت تسأله:

ـ حتى وإنْ لم نلتقِ من قبل؟ أجابها:

ـ لكننا التقيْنا.

اقتربَ منها، طوَّق جسدها بذراعيه، لثَمَها بقُبلة طويلة، أعادَ إليها بهجة لم تكن تتصوَّرها، انتشَت، تطاوَل جسدها، عانقتْهُ، أسندَتْ رأسها على صدره العامر، انهمرَتْ دموع الفرح من عينيها، شعرَت أنها أقوَى، أنَّ قلبها العليل قد استبدلتْهُ.

يصمُتُ بُرهة، يُحدِّق فى عينيها، يقول:

ـ نعم، التقينا، أحببتكِ قبل أن نلتقي، حلَمتُ بوجهكِ السَّخيّ، عرفتُ أنّك بانتظاري في فضاء لا يَعرف سِوى الحبّ، هكذا أخبرَتْني عرَّافتي.

تنتفضُ واقفة:

ـ ولكنِّي سأموتُ قريبًا.

يبتسم :

ـ ألأَنكِ وحيدة؟

ـ نعم.

ـ مِن الآن لن تكوني وحيدة، سأكونُ معَكِ.

تشعرُ باندفاعها إليه كشِهاب يَهوي، تسارَعتْ دقَّات قلبها، عادَت لِحضنه، التصقِتْ بجسَده، ضمَّها بقُوة، انفلتتْ من بين ذراعيه بخفة، لاتَّسَعتْ ابتسامتها، همَسَتْ له:

ـ شُفيتُ بحُبّكَ.

طريقٌ آخر

مَرَّ شهران دون أنْ يَتقابَلا، كانت تَسُوقُ له اعتذاراتٍ يراها واهِية، تملَّكَ منه الشَّك وألَّمت به حَيرة، هل فتَرَ حُبُّها؟

ولكنه لا يَلبثْ أن يَطرح شُكوكه جانبًا ويعود ليُطَمْئِن نفسه، كيف يكون ذلك؛ وحُبنا يضرب بجذوره فى عُمق خمس سنوات مضَتْ، ربما تكون بالفعل مشغولة، ثم ما جدوَى هذا التفكير الآن ما دامت قد وافقَتْ، فاليومَ سألقاها فى السادسة مساءً.

تَهنْدَمَ منذ الثالثة، يَشعرُ بالوقتُ يَمرُّ ثقيلاً ثقيلاً، تَمْرأى وهو يُسائل نفسه :

ـ أيمكنُها التنازل عن وسامتكْ؟

نسِيَ الوقت أمام المرآة وهو يَمتدح نفسه، قبل السادسة يصحو من غفوته، يُسرع إلى الخارج، يتحسَّس القصيدة الجديدة التى كَتبها لها، تذكَّر أنه لم يضبطها بعد بالشَّكْل ولكنه لا يستطيع الانتظار أكثر من ذلك.

انطلق بالسيارة وقد انتصبَتْ أمام عينيه صورة ابتسامتها وهى نَشْوَى بسماع ما يكتُبه؛ كعادتها معه، راقَصَها فى خياله وضحِكَ ضحكة مُجْلجِلة حينما حضَرْت صورة آخر لقاء لهما

ثم تذكَّر فى اللحظة الأخيرة عُزوفها عن لِقائه، وعادَ ليُحدِّث نفسه:

ـ كيف بإمكانها أن تتركَني وأنا أرصُفُ لها قصائد كل يوم؟

وضع القصيدة فى جَيْبه وقرَّر استكمال ضبطها هناك، فى ركنها المعتاد فى ذلك "الكافيه" الكبير الذى اعتادا اللقاء فيه، بلغ المكان، أخرجَها من جيْبه، اكتشفَ نسيانه القلم.

قصَدَ "الكاشير" ليَسْتعير قلمًا، تسَمَّر فى مكانه، انعقَد لسانه، لمحَها تجلس مع رجل آخر، خانَتْهُ قدماه، ولم تعودا تحملانه، ولَّى وجههُ شَطرَ الباب، ارتمى على أقرب مقعد ليلتقط أنفاسه.

لم يدرِ أنها رأتهُ وهو ينصرف، أسرعَت لتَلحَق به، كانت يداه ترتعشان وتكسو ملامحه علامات الغضب، أدار لها ظهره، فاستدارَتْ لتُواجهه:

ـ لِمَ تجلسْ هُنا ؟ ألم ترَني ؟

ـ تقصدين رأيتكما !

ـ نعم رأيتنا، لِمَ لمْ تقوَ على المواجَهة ؟ أليس فى رأسكَ نخْوَة الرجال؟

كان الضيف يُتابع الحدَثَ من بعيد، دعَتْهُ بإيماءة فحضَرَ، أشارت إليه تقول "الأستاذ ...." صَمَّ أذنيْهِ عن سماع صوتها، لم يأبَه بما قالت، ولا باليد الممدودة لتصافحه، بقِي ينظر إليها بنظرة خالية من أى معنَى سِوَى احتقارها.

يُغادرهما الضَّيف ويَستمرُّ هو فى توجيه إهاناته إليها :

ـ يبدو أننى أخطأتُ لأني جئتُ مبكرًا، كان دَوْري فى اللقاء من بعده، لماذا وافقتِ على لقائي إذن؟

تمالَكَتْ أعصابها، همَّتْ أن تتكلم فلم يعُطِها الفرصة وخانَتْهُ دَمعات سالتْ على وجنتيْه، واسترسَل :

ـ لماذا تهرَّبتِ من مُقابلتي طيلة شهرين مَضَيا؟ هل لتُخلي له الساحة؟

تتلاحق حركتا الشهيق والزفير عندها، يعلو صدرها ويهبط، تتنفس بصعوبة، تضغط على فكَّيْها بشدَّة، تفرك بيدها اليُمنى قَبضة يدها اليُسرَى، يُوالى مُحاكمتها:

ـ مَن هو ؟ تكلَّمي، قولي فورًا لماذا كان مَعكِ ؟

فى لحظة كَومْض البرق يَقفز إلى ذِهنها لمحات مما كان يتشدَّق مُختالاً به، كيف كان مُدلَّلاً فى صغره، مُجاب الطلبات فى صِباه، كيف لم يعْتدْ قضاء حاجياتَه بنفسه ولا التفكير فى أمر يخصُّه، كان والده يقوم بكل هذا، ولكنه مات.

تجلس على أقرب مقعد أبصرتْهُ عيناها، تنهمرُ دموعها فى صمتْ، تنظر إليه نظرة المصدومة من هوْل كارثة، تقول بصوتٍ كَسِير تَهدَّج بالبُكاء :

ـ كنتُ أمنَحُكَ فرصة لتستعيد طاقة الرجولة التى خُنتها خمس سنوات وأنا أنتظرُ منكَ فِعلاً ، لم أجد سِوَى أوهامك الشِّعرية، مَللتُكَ وملَلْتُ لا مُبالاتك.

الذي كان معى هو ناشر، دعوته ليتعرَّفَ إليكَ ويبتاع ديوانَك، لتقوَى ولو لمرَّة واحدة على اتخاذ قرار، لقد أردتُ انتشالك من بئر ضَعفكْ.

يَفغَر فاه، تتَّسِع عيناه، يُطلق نظراته فى الأفُق بعيدًا عنها، أبله يتعثَّر فى خَطاه، أمَّا هي فقد أدركَتْ منذ لحظتها هذه طريقًا آخر.

من جديد

ذاتَ صباح اتَّصل بها يطلُب لقاءً، استشعرَتْ اهتمامًا خاصًا منه، حدَّثها فى أمر زواجهما، وحينما أخبرها أنه أرْمَل وله طفلان رفضَتْ.

عادت إلى منزلها وأفكارها إعصارُ حَيرة يضرب رأسها، هو إنسان رائع، مالت نفسها نحوه؛ ولكن أنْ تتعامل بصفته أرمل؛ وأبًا لطفلين؛ فهو أمرٌ تعجَز عن تحقيقه.

طلبَ مُجالستها من جديد، رفضَتْ، تدخَّل الأهل فوافقَتْ على لقاءٍ ثانٍ؛ فهى واثقة من قُدرتها على الإقناع بصواب رفضها.

التقيا من جديد، أظهرَ فى حديثه طاقاته القُصوَى على الحب؛ وإمكاناته المعرفية وغِناه، ولكنه فشل فى إقناعها، وقرَّر أن يبحَث عن درب آخر.

حينما همَّت بوداعه سألته عرَضًا:

ـ احكِ عنها.

انحدرت من عينيه عبراتٌ فى صمت، ثم حكى وكله حنان واحترام لذِكراها، قال :

ـ كانت طَهُورًا، أدخلَتْني مع ولديَّ فضاء السعادة، لم تَشُبْها شائبة، رحلَتْ وبقي أريج ذكراها، ألتقيها مع التقاء أحد طفليها.

باغَتها بفيض الحب الذى امتزج بآلام الفراق، كانت روحه تُرفرف حول جَبل الروح، ثم استدار وأودعها كلمات الانصراف.

تمسَّكت به وطلبَتْ منه الجلوس ليحكي لها أكثر، فسألته:

ـ ألا زلتَ تُحبها ؟

أجاب وملامح الحزن على سِيماءِ وجهه:

ـ أحبُّها، وسأبْقَى ما حَييتْ.

ترفع عينيها إليه باسمةً وتهمس :

ـ سأتقمَّصُ روحها؛ لأحظَى بمثل هذا الحب.

برجولا

مِثلُ مُتحفٍ قديم؛ صارَ بيتهم الرِّيفيّ العتيق وسَط عماراتٍ شاهقةٍ أحاطتْ به من كل جانب، كأن البيت أصبح وأمسَى فوجدوه على شاطئ النيل في الزمالك.

شَدَّه الحنينُ إليه بعد انتهاء مدة إعارته لمرَّتين؛ لم يتمكَّن خلالها من زيارته، طافَ بالحديقة أولاً مثلما كان يفعل فى صِباه وفى شبابه؛ قبل أن يَلج باب البيت.

تفقَّد شجرة "الكَشْمرُونة" العتيقة التى جلبَها والده ذات يوم من أقاصي الصعيد؛ إذ لا توجد إلا هناك، شجرةٌ نادرة من أشجار قصور الأغنياء فى غابر الزمان، كان يزهو بذِكر سيرتها وتلعثُم رُفقائِه عند نُطق اسمها، ويجد مُتعةً فى شرح بيانٍ مُقتضَب عن تاريخها؛ وشكل وطعْم ثمَرتها النادرة.

دون أن يدري التزَم فى تفقُّده خط السَّير الذى كان يسلُكه فى صباه، لم يزل فى الركن الشرقي من السور شجرة الليمون العتيقة عالية الأغصان، شجرة الرُّمان الهرمة التى تفرد أشواكها المتشابكة على أكتاف عدد مما يجاورها من أشجار، ثم أهم ما يُميِّز الحديقة؛ شجرة المشمش، تلك العلامة الظاهرة لكل من يَمرُّ بالبيت، وأشجار البونسِيانا التى تحفُّ السُّور من جِهاته الأربع.

كانت نفسه تئِن من اغترابه، لم يستطع رؤية الأشجار إلا عارية من ألوانها، بقي طَوال سنوات عمره فى تَعب يحلم باللون الأخضر وزَهر الرمان المُضيء، أمَّا الآن فالأشجار وإن كانت لم تَزل باقية؛ لكنْ بدَتْ ألوانها جميعًا شاحبةً ما بين الخُضرة الباهتة والميْل الشديد إلى الاصفرار.

لمحَ صفيحة بالية بجوار السُّور، التقطَها لا شُعوريًا قاصدًا الطُّلمبة "الماصَّة الكابسة" ليروي عطش شجرته المُحبَّبة "الكَثْمرونة" وجدَ الطلمبة يعلوها الصدأ، وانحَشر فى جوفها كمية كبيرة من أوراق الشجر اليابسة، شعرَ بحزن يتسلَّل إلى أوصاله فغادَر الحديقة.

يَصعد إلى السطوح قبل أن يَدخل إلى الطابق الأرضي، تعرَّت البرجولة وخلعَتْ أرديتها الزَّاهية وتهالَكَتْ بعض أخشابها.

جالَ بناظرَيْه من حوله، أطباق الأقمار الاصطناعية تُحاصر البيت من كل اتجاه، الدُّور القديمة صارت عمارات، أجهزة التكييف تخترق جدران البنايات، تمرُّ على سطحه أسلاك وصلات الإنترنت، تنتصِبُ أبراج شبكات المحمول فى الأرض الزراعية التى بدَتْ قريبة من البيت نظرًا لما حَصَل لها من غَزْوٍ مِعماريّ عشوائي.

جاء ببعض قِطع الخشب والمسامير وراحَ يُرمِّم البُرجولة، وما أن انتهَى من الترميم؛ حتى شرَع فى طِلائها بألوانٍ زاهية، كانت الألوان ترُدُّ إليه روحه وكأنه يَستعيدها مع كل حركةٍ للفُرشاة.

شعرَ بعد ترميمها بسعادةٍ غامرة؛ وإحساس بالراحة تسرَّب إليه من اشْتمام عَبق الماضى الجميل، وانسابَت فى أوصاله رائحة الذكريات.

كانت الشمس تَميُل إلى الغُروب، حاول أن يمسك بخيوطها التى تسلَّلت فى هدوء؛ لتُلقي بأشعتها الحمراء كسلاسِل ذهبية؛ تنعكس على الألوان الغريبة لِطلاء البنايات الجديدة، حتى بدَت الصورة كلَوْحة مُخْرَبَشة انسكبَتْ عليها أحْبار الرَّسام، وإذا بابن أخيه يحضر إثر عِلمه بتواجده، يسأله وهو ينظِّف آثار الترميم:

ـ ماذا تصنع يا عَمِّي ؟.

أجابه فى سعادة مُتخيلاً أنْ يُبادله إيَّاها :

ـ كما تَرى، أعدتُ "البُرجولة" إلى سابق عهدها، كأنها لم تزل مَصنوعة حديثًا، هل أعجَبتكَ ؟

ثم خطَر له أن يعاتبه على إهماله مع أبناء جيله للدار فأردف:

ـ ثم قل لي، ألمْ تستطعْ أنتَ أو أي من أبناءِ عُمومتك؛ أو عماتك رَيّ الحديقة ولو كل فترة؟ ألم ترَ حال الأشجار ؟ إنها كائنات حيَّة، لها علينا حق رعايتها و..!

تبسَّم الشاب ضاحكًا من قوله، وقاطَعه بصوتٍ مُتهكِّم :

ـ بُرجولة ماذا يا عَمِّي؟ وأي أشجار؟ ليس الزمن زمن برجولاتٍ الآن، لا وقتَ ليستظلَّ أحدٌ تحت بُرجولة عَصرًا أو يَسهرَ تحتها فى ضوء القمر ليلاً ، حتى القمر يا عمِّ لم يَعُد يَبزُغ، لن تراه حتى لو سهَرتَ أبدًا.

نحن فى عصر السرعة، ولن ترَى الخُضرة التى كان أبي يُحدثنا عن جمالها؛ وأنتم تنظرونها من فوق هذا السطح حين جلوسكم تحت البرجولة.

آلمتهُ نبرةُ صوت ابن أخيه وطريقة حديثه وتناوله للأمر؛ وما صار يُلمِّح إليه؛ من أنَّ البيتَ أصبح كالوقف لا يستطيع أحد التصرف فيه، ولا حتى إعادة بنائه كمَنْ بَنُوا عمارات؛ وكانوا فقراءَ لا يملكون رُبع مساحته؛ بعد سفرهم إلى النمسا وفرنسا وألمانيا واليونان، وكان أهلوهم يعملون فى أرض جَدِّه.

وقبل أن ينزل درَج السُّلم، كان ابنا شقيقتيه قد وصلا وبعد أن ألقيا السلام فى فُتور؛ يُخبرهما ابن أخيه بما صنَع خالهما

بالبرجولة، تنفرج شَفتا كليهما عن ابتسامةٍ باهتةٍ، وقال أحدهما:

ـ يا خالنا العزيز، دَع زمانكَ ذاكَ وزمن البرجولة الذى ولَّى من دون عودة، الناس أقاموا عماراتٍ ولم يبقَ إلا بيْت جَدِّنا ولا نظنُّك تَقْدر على شراء أنصبتنا منه، أثمان العقارات طارت فى السماء، ولكنَّ حفيد حميدو وهدان عرَضَ فيه ثَمنًا باهظًا إذ بلغ سِعر المتر ثلاثة آلاف جنيه، أي ما يُجاوز ثلاثة ملايين جنيه يا خالي، وجميعنا فى حاجة إلى أنصبتنا فيه، تخرَّجنا فى كلياتنا ولا نجد عملاً، سافَر بعضنا إلى الأردن وعاد بخُفَّيْ حُنين، ودفَع بعضنا تحويشة عُمْر والديه ونَصبَ علينا تُجار السَّفر غير الشَّرعىّ للخارج، بل غرَق بعض أمثالنا فى مياه البحر وهُم يحاولون الهِجرة.

يسألهم مُتعجِّبًا :

ـ حفيد حميدو وهدان؟ الخادم الذي كان يَرعَى الحديقة ويقضي طلبات البيْت؟ ويحصُل على الزكاة عينًا من أهل القرية؛ يملِكُ مثل هذا المبلغ؟ ولماذا يشتريه؟ ألم يَبْنِ بيْتًا حتى الآن؟

يضحكون بصوتٍ عالٍ :

ـ دَعْ هذا التفكير، زكاة ماذا، وأي حديقة؟ هذا كان على أيامك، إنه يملكُ أكثر من ذلك، ومزارع مُتعددة فى الأرض الصحراوية، وحدِّث بلا حرَجْ عن حَجْم ثروته، بل بَنى قصرًا فى أطراف القرية يستقبل فيه العاهرات وجُلسَاء سهَرات المخدرات الذين يَرصُّون له أحْجار الحشيش على الشِّيشة.

أجابَهم بسذاجته المعهودة:

ـ وهل تُوافقون على هدْم البيْت ؟

ـ نعم نوافق، جميعنا يحتاج إلى نصيبه، فلْتشتريه أنتَ إن شِئتَ وأعطنا ثمن أنصبتنا.

ـ وهل عقدتُم جميع أحلامكم على أنصبتكم فى بيْت جَدِّكم ولا شىء غير هذا؟ كيف ترَوْنَ مُستقبلكم؟ هل هو مُجَّرد انتظار للميراث؟

لم يستطع السيطرة على انفعاله، ثارَ فيهم ثورةً عارمةً مُسفِّهًا تفكيرهم، تجهَّمَتْ وُجوههم وانسلَّوا واحدًا تلو الآخر؛ ولكنَّ آخرهم قال وقد بدا الغضب على وجهه:

ـ تَفكَّر يا عَمِّي فى الأمر، ولنكْفِ بعضَنا مَغبَّة التقاضي احترامًا للرَّحم.

كانت العبارة الأخيرة صادِمة، لهجةٌ لم يكُن لِيتَخيَّل مُخاطبته بها، تذكَّرَ تلك الأيام الخَوالي التى كان احترام الكبير

سِمة من سِماتها، والتأدُّب فى القَوْل من شِيَم أهلِها، وراحَ ينزل دَرج السُّلَّم بقدمين لا تكادان تحملانه.

دخل الطابق الأرضي، رائحة التراب تَزْكم أنفه، يُنظِّف مقعدًا ويُلقي عليه جسده، يشرد بذهنه، تتداعَى أمام عينيه صوَر الذكريات، تذكَّر حكايات والده عن جدِّه المُزارع البسيط الذى كدَّ من خلال قطعة أرض صغيرة المساحة حتى أنماها وزاد من رُقعتها، ثم تاجَر رويدًا رويدًا فى بورصة القُطن؛ حتى صار من كبار التُجَّار فى هذا المَجال، وانخراطه فى العمل الخيري مُساهمًا ببعض ما فاءَ الله عليه به من مال وبنائه هذا البيْت الذى شهِد اجتماعات من كانوا ينشغلون بالعمل العام، وأعضاء الاتحاد الاشتراكي.

هذا البيْت كان الوحيد الذى أقيم على هيئة قصر، لم يكن يُضاهيه بيْتٌ آخر فى القرية كلها، شارك والده فى زرْع جميع أشجاره وسقاها بيده، وصمَّم البرجولة بنفسه وأشرف على تنفيذها بدقةٍ بالغة.

كانت البرجولة علامة ظاهرة لكل من يهبط القرية ابتداء من جِسْر البحر على مسافة كيلو متر، يهتدي بها الناس إلى بيْت الحاج شرَف؛ كانت علامة لما حولها، يقولون أمام برجولة الحاج شرف، أو شرقها، أو غربها.

كم جمَعتْهُم حول الراديو لسَماع حفلات أم كلثوم وسط أجواء من دفءٍ عائليّ يُحيط بهم وهم تحتها ليلاً، أو تحت أضوائها الخافتهً أو ضوء القمر فى ليالٍ غيرها، وُجِدَ هذا الدِّفء قبل أن يُوَجدَ هؤلاء، وها هُم الآن يَبغُون زَوالَ كل شيء، زَوَال البيْت بذكرياته ليبْتاعَهُ منهم ابن حميدو وهدان.

لم ينسَ ذلك اليوم وهُم يتجمَّعون تحتها؛ وأبصر والده يبكي أمامَهُ لأول مرَّة فى حياته؛ حين أذاع الراديو خطاب تَنحِّي الرئيس عبد الناصر، وكيف هُرِعَ مثله إلى شوارع القرية يُشاركان فى تلك المظاهرات العارمة التى اندلعَتْ تُطالبه بعدم التنحِّي.

طافَتْ بذاكرتهِ كلّ هذه الذكريات؛ وجسَده مُلقَى كَكوْمة من اللَّحم على المقعد الذى ألقَى به عليه خشية سُقوطه أرضًا قبل أن ينصرفوا.

نامَ ليلتهُ منكسرًا على ذات المقعد بعد أن غادروه جميعًا، يضربُ رأسهُ حُلم مُزعج، يرَى والده يُجالسه ذات الجلسة تحت البرجولة يوم تنحِّي عبد الناصر، يراه يبكي ذات البُكاء وأفواه من يتحلَّقون من حوله ساعتها وهى فاغِرة لا يريدون تصديق أنه يبكي، ولكنه حين هَمَّ جرْيًا ليخرُج إلى الشارع إثر سماع تصايُح الناس؛ لم يقصِد السُّلَّم ولكنه قصَدَ ناحية من

السُّور فهَوَى على الأرض فى لَمْح البَصَرْ، ولَّما هُرِعُوا إليه يتخبَّطُون فى بعضهم حتى ضاقَ بهم السُّلَّم؛ وجدوه قد مات.

صحَا من نومه على صوته وهو يصرخ، تلفَّتَ من حوله فلم يجد أحدًا، غلبَهُ البُكاء فبكَى، جلس إلى نفسه واضعًا رأسه بين كفيه، راح فى تفكير عميق؛ نحَا به إلى أن يقوم من جلسته ليقْطع الغُرفة ذهابًا وعودة حتى كلَّت قدماه، ثم عاد ليُلقي جسده على المقعد مرة أخرى.

لم يجد بُدًّا من الامتثال لمطالبهم، أصحاب فِكر كهذا؛ لا جدوَى من الحديث معهم فيما لا يُدركون له قِيمة، فى الصباح التقَى ابن حميدو وهدان، وفى المساء قبضوا الملايين الثلاثة وسلَّموه البيْت.

قبَضَ ما يخصُّه من المال وترَكَ لهم ما تَبقَّى، تسلَّموه وفَرْحة عارمة تعلو وجُوههم، تَوجَّه إلى الجمعية الخيرية وحيدًا وتبرَّع بنصيبه، عاد يجرُّ ساقيه وهو ساهمٌ شارد.

قابَلهُ أحد أبناء عُمومته فأبَى إلا أن يُضيِّفه، يحكى له ما حدَث؛ وما كان من أمر تبرُّعهِ بالمبلغ، انفرَجَتْ شفَتا ابن عمه عن ابتسامة ساخِرة، لامَ عليه تسرُّعه فى التّبرع، فالقائمون على الجمعية الخيرية تلوكُهم الألسُن، ليْسوا أمناء على أموالها

حَكَى له عما اختلسُوه منها؛ وعمَّا دارَ من شِقاقٍ بينهم وبين أهل القرية.

يعودُ إلى الجمعية ليَسْتردَّ المبلغ، يرفُض القائمون عليها بحُجَّة أنَّهم لا يملكون إعادته وقد أثبتوهُ فى دفاترها.

كان الليل قد أرْخَى سُدولهُ على الكوْن كأنَّ ستائر حالكة السَّواد تُغطِّي الأفُق، لم يتركه ابن عمه للسفر وهو على هذه الحالة من الشُّرود؛ وقد لمح الحزن يَظهر فى عيْنيهِ والهُمومُ تُعشِّشُ فى نفسِه، قضَى ليلتهُ عنده، وفى الصباح هَمَّ مُبكرًا ليُغادِر القرية، ولكن المُضيف أبَى إلا أن يُضيِّفهُ على الغَدَاء.

فى نهاية اليوم يُغادر، اختار طريقًا يمرُّ بالبيْت ليُلقي عليه نظرة الوَدَاع، كان الوقت عند الغروب، يقترب من البيْت، لم يتخيَّل أنه سيُهدم بهذه السرعة، جمعٌ غفير من الناس، بلدوزر عملاق يهدم فى البُنيان، يَجرفُ فى الحديقة، يَقتلع الأشجار ويَرصُّها فى أحد أجْناب الطريق، الأشجارُ تنزف وهى صريعة بين أنياب البلدوزر.

يَستمر البلدوزر فى الهَدْم، يَضربُ الجُّزء الشَّرقي من البيْت، تَتهاوَى أشجار الكَثمرُونة والبونسِيانا والليمون والرُّمان، يضربُ العمود الذى يلتفُّ حوله السُّلَّم الحلزوني

الجانبي، تتهاوَى الجُدران وتَندَثِرُ معها الذِّكريات، تَتكوَّم البرجولة أمام عيْنيه، تُقعْقِعُ أخشابها بين الأحْجار، يُغطِّي عيْنيهْ سريعًا بنظارته السَّوداء ليُخفي عبَراتٍ خانَتْهُ فانحدرَتْ على وجنَتيْه، مُبتعدًا قبل أن تلمَحهُ العيون.

يستقلُّ سيارته، يُقُودها وعيناه زائغتان، يَبْلُغ جِسر البحر، الفلاحون يَجْرُون ويتصايحُون .. سيارة عند خُروجها من القرية لم تأخذ طريقها يَمينًا؛ بل استمرَّت فى خَطٍ مُستقيم لتِسقُط فى مياه الرَّياح.

وظلَّتْ تنتظر...

كان الوقتُ شتاءً والسُّكون قاتِل، تُسَلِّي نفسها بالتلفاز تارةً، وبالقراءة تارةً أخرى؛ من دون الحصول على طاقة.

تلجأ إلى سطح الفيلَّا تبتغي مُتنَفسًا لها خارج الجدران المُطبِقةِ على ضُلوعها، اتخذَتْ رُكنًا من السطح فى الجانب البحري؛ لتجلس على أريكة تحت البرجولة المُغطَّاة بالقرميد اليوناني، أطلقَت العنانَ لبصَرها ليَسْرحَ فى الأفُق البعيد عَبْرَ مياه البحر، وجدَتْهُ غريبًا عنها، لم يَكُن البحر الذي تعرفه، مياهه تضربها زُرقةٌ قاتمة تميلُ إلى السَّواد، وبعض طيور النورَس تتقاتَل بمناقيرها وتزعق بأصواتٍ مُرعبة تتناهَى إلى سمعِها.

عادت لتجُولَ بناظريْها فيما حولها من مبان، تلَمح باب فرندة الفيلَّا المجاورة مَفتوحًا وأصائِص الورود والزهور تتوزع بتناسق جميل فى جنبَاتها؛ وعلى حوافِّ سُورها، راحت تُملِّي عينيها بجمالها.

يخرجُ من الداخل شابٌ وسيم، يمسكُ بمرَشَّة مياه ويهزُّ الورود والزهور لينفض عنها الغبار ثم يسقيها برفق، ينتقل بتؤدَةٍ وسعادةٍ بدَتْ على وجْههِ من إصِّيصٍ إلى آخر.

يُلقي عليها الشاب التحية، تُبادله إياها، على استحياءٍ يبدآن حديثًا اقتضاه بَدْء التَّعارُف، شيئًا فشيئًا اتسَعتْ مساحة الحديث، وجدَتْ فى هذه المساحة أنيسًا لها.

فى الصباح التالى توجَّهت إلى السطح وجلسَتْ بذات الرُّكن تحت البرجولة، أشعلَتْ سيجارة وأرسلَتْ بناظريْها إلى أُصُص الوُرود والأزهار، خرج عليها بابتسامةٍ صافية فور جُلوسها؛ وكأنه كان على مَوْعدٍ معها، فرِحَتْ وانفرَجتْ شفتاها عن ابتسامةٍ رائقة.

يدعوها لجلسةٍ على رمال الشاطىء عند العَصاري، كان يومًا صافيًا انكسرَتْ فيه حِدَّة البرد؛ وصفَتْ السماء من الغُيوم، تغَلْغَلتْ أشعة الشمس فى جسدها وهما يتمشَّيان يقصِدان الرمال قُرب المياه، جاوَرها عن قُرب؛ تشعر بقشعريرةٍ مُفاجئةٍ تضربُ جسدها حينما لامَسه وهو يجلس إلى جوارها، تذكَّرت أول لمسةٍ ليدها من حبيبها فى أيام الصِّبا وكيف ارتعدتْ يومها بعُنف، لاحظ ارتعاش جسدها، مدَّ يديه واحتضن بهما يدها، شعرَتْ بدفءٍ أكثر يتسرَّب إلى أوصالها؛ ولكن سرعان ما سحَبتْها ببطء من يده.

عادت من اللقاء مَسرورة، شابٌ مثقَّف، حُلو القَوْل يملكُ ناصيةَ الحديثِ وجَذْب أذُن المستمع، غير متزوج، لديه

أشغالٌ كثيرة؛ ولكنه يُؤمنُ بأنَّ لكل شيءٍ حقًا؛ وأوله بدَنُه يأتى إلى هذا المكان دائمًا ليخرُج قليلاً من مَدارِ ساقية مَشاغل الحياة، هكذا حدَّثها عن نفسه.

يتكرَّر اللقاء؛ ولكنْ هذه المرَّة فى استقبالِ أحد الفنادق بشاطئ العَلمين، صمَّمَ على تناولها الغَداء معه، لم تُمانع. اختار مكانًا غير المطعم، كبائن مفتوحة قُرب الشاطئ؛ كل واحدةٍ منها مُحدَّدة بجوانب أربعة تفصلها عن غيرها؛ فيتحقَّق من خلال ذلك خُصوصيَّة، أو كما يُسمُّونها أماكن العائلات. جمَع العاملُ ما تَبقَّى من طعام وعادَ إليهما بمشروبات.

يأخذه الفضول إلى معرفة حكايتها، يسألها بصوتٍ رقيق وابتسامةٍ ساحرة:

ـ لِمَ هذا الحزن الذى يكسُو ملامحكِ ؟

أطرقَتْ، خشِىَ أن يكون قد جرَح كبرياءها فاعتذر لها عن فُضوله.

وجدَتها فرصة لأنْ يَسمعها أحد، لأنْ تُزيح شيئًا من جبَل الهمُوم الجّاثِم فوق صدرها، راحَت تحكي بصوتٍ مَخنوق يَلفُّه ألم :

ـ فى بداية هذا الأسبوع؛ عادَ من عملِه مُتأخرًا كعادته، قصدَ غرفة النوم مباشرة؛ لم يُكلِّمني كلمةً واحدة؛ تبِعْتُه لأتحدَّثَ

معه؛ لأعْرفَ مَدَى ذلك الفُتور القاتِل الذى يَضربُ حياتنا ومتى سَينتهي استغراق عمله لكلّ وقته؛ حتى فى أيام الإجازات، ويُهملُ مشاعرى.

استبدلَ ملابسه سريعًا وتمدَّدَ فى السَّرير وأْولاني ظهره وسحبَ غِطاءً خفيفًا شدَّهُ عليه ليُخفي به وجهه، فارت أعصابى وتملَّكني الغضب، صرختُ فيه:

ـ أين وعُودكُ الماضية؟ أين حقوقي كأنثى؟ هل تعلم منذ متى لم تَقربني كزوجة؟ أمْ أنَّ أموالك هى كل ما يحتلُّ ذاكرتك؟

يبدو الامتعاض على وجه الشاب، يسألها برفق :

ـ أإلى هذا الحد يُهملك؟

تستمر:

ـ نهضَ من رقْدتهِ وثارَ فى وجهي ثورةً عارمة، انتابَتْهُ حالة مُفاجئة من الهياج الهيستيريّ، همَمْتُ أنْ أتكلَّم فلم يخرج صوتي، تحوَّل كلّ انفعالي فى لحظة إلى نوبة بكاء لم تُثِر شفقتَه رفعَ سبَّابتهُ فى وجهي وجحظَتْ عيناهُ وانتفخَتْ عروقُ رقبته وانطلق كالمدفع:

ـ لن أكلِّمكِ، كرهتُ الحديث معكِ، كرهتُ الأسطوانةَ المشروخةَ عن انشغالي عنكِ، عن شعورك بالوحدة، فأنتِ

وشأنك فى شُعورك بها، ماذا تريدين مِنِّي؟ أأتركُ أعمالي وأجلسُ إلى جوارِكِ نُمثِّل قِصصَ الحب التُّركيْ؟

يُتابعها الشَّاب باهتمام بالِغ، تصمُتُ لبُرهة، يمدُّ يده برفق ليرفَع وجهها بهدوءٍ إلى أعلى؛ ويدعوها بصوتٍ نالَ منه الحزن إلى أن تُكمل:

ـ ثم ماذا.

تنظرُ فى عينيه، تَلمح مدَى التأثُّر الذى بَدا على وجهه، تُكمل وقد انفرجَتْ شفتاهَا عن ابتسامة رقيقة:

ـ ثم اقترح إبعادي عنه؛ أرسلَني إلى هُنا بإرادته لألتقيكَ وأحكي لكَ عن هُمومي، قال فى ثورته تلك، لديَّ اقتراح أخير؛ وبعدها لنجد حلاً لهذا الهوَسْ، اذهبي لمدة أسبوع إلى فيلَّتنا فى الساحل الشمالي؛ حتى تهدئي وبعدها فلْنرَ.

يُقاطعها:

ـ لا أُصدِّقُ مثلَ هذه القسْوة.

تَسترسل :

ـ حاولتُ أن أُثيرَ لديه رُجولة مَنسيَّة في زوايا تجارته ومخازنه ومشاريعه الاستثمارية، ولكنه لم يستطع أنْ يَرصُدَ نورًا يشعُّ فى جسدي؛ ونيرانًا تلتهم مشاعري؛ وأنا أنتظره كزوجة، كأنثى لها متطلباتها.

لم أترَدَّدْ فى قبول اقتراحه، فالبيتُ صار بالنسبة لي سِجنًا انفراديًا، وقبل لُقياكَ كانت الفيلاَّ أكثر سِجنًا، لولا لجأتُ إلى السطوح ووجدتُكَ وتكلمتُ معكَ.

يربتُ برفقٍ على ظهر يدها الممدودة على المنضدة ويسألها:

ـ هل تزوجتِه دون قناعة؟

تَسحب نفَسًا عميقًا تُخرجه زَفرة طويلة وتُكمل :

ـ كان حبُّنا مُستعِرًا فى بدايته، ولَّما بلغَ من النجاح فى أعماله مَبلغًا، وجدْتُني وكأنِّي لم أعد في حياته، صارت حياته كلها مُقابلات للعملاء، سَفريات، اجتماعات، نَهمًا للمال دون حساب، وحين يعودُ للبيْت؛ يكون مُنهكًا كمَن يحملون أثقالاً من عُمال المعمار، وإذا حدَّثتهُ فى شيءٍ يقول "ليس الآن، ليس الآن"لم يعُدْ يَتقبَّل مُجرَّد النِّقاش، يقول:

ـ ما مَعنى وِحدة ؟ كل طلباتك مُجابة.

لم يفهَم أنَّ طلبات الأنثى ليست كلها مادية، إنما التواصل والإحساس بالآخر، الشعور بالأمان النفسيّ، الاحتواءُ ولو كان الطَّرفان يغرقان فى المادِّيات، صار البيت سِجنًا بمعنى الكلمة، لم أعد أتحمله ولم يعد يتحملني.

لم يُقاطعها، كان مُنْصتًا إليها بعناية، لاحظَتْ على وجهه ردّ فعل آلامها وهى تحكي، تنقبض ملامحه حين تتوتر وتنفرج حين تهدأ.

ولما بلغَتْ فى الحَكْى تفاصيلَ ذلك اليوم العاصِفْ سالت دموعها؛ وشرَعتْ فى فتح حقيبة يدها، كان أسرع منها تَصرُّفًا، هَبَّ إلى علبة المناديل وانتزَع منها اثنين أو ثلاثة أعطاها لها.

ترفع إليه وجهها بعد تجفيف دموعها، فإذا ملامحه قد بدا عليها أثرَ حَكْيها، أومَأ إليها لتُكمل فاسترسلَت :

ـ و بعد ثورتهِ هذه، لو كنتُ قد نطقْتُ حَرفًا لقَتلني، لم أرَ منه ثورة مثل هذه الثورة، ابتلعْتُ الكلامَ ساعَتها، ليس مَنعًا لزيادة حِدة الشِّجار معه؛ وإنما خوفًا ورُعبًا، لأول مرّة أجد حياتي فى خطر، لم يكن بهذه الحدَّة من قَبل، ولكنْ زادَتْ بعد كثرة مُجادلتي له حول اهمالي كزوجة، لاحظتُ ذلك بعد أن عثرتُ ذاتَ يوم فى ملابسه على أقراص "الترامادول" المخدِّرة.

يتهدَّج صوتُها بالبكاء، تُمسكُ عن الكلام، تعود دموعها لتنحدر على وجنتيها من جديد، فى هذه المرَّة انتزع مناديلَ جديدة من العُلبة، ولكنه لم يُناولها لها، مدَّ يده بها وراح يُجفِّف دموعها.

ما أن فَعل هذا؛ حتى ارتفعَ قليلاً صوتُ بكائها، زادَتْ الدموع فى الانحدار، اقتربَت منهُ، مالتْ إليه من خلال مقعدها، طوَّقَتْ كتفه بذراعها وضمته إليها قدر ما استطاعت؛ وهو جالسٌ فى مقعده، اقتربَ منها برأسه، طبَعَتْ على خدِّه قُبلة، اعتدلَ فى جلسته، مالَ نحوها على حين غِرَّة، التقطَ شفتها بين شفتيْه، ارتدَّت إلى الخلف، انتصبَتْ واقفة، طلبَتْ منه الانصراف؛ فانصرفا.

فى اليوم التالى شعرَتْ بلهفةٍ إلى رؤيته، إلى الحديث معه، إلى لمس إحساسه بالاهتمام بها، قامت إلى هاتفها تطلبه ولكنها عادت وأحْجَمَتْ، تذكَّرَتْ أنها زوجة، وتلك اللَّقطة حين التهمَ شفتها على غفلة، كانت هذه الصورة تُعذِّبها في الليلة الفائتة.

تحرَّكَتْ فى الصالة ذِهابًا وإيابًا، مشاعر مُتناقضة تعْتملُ فى نفسها، شعور بارتياح لم تشعُر به من قبل؛ يأخذها إلى شوقٍ جارفٍ لأنْ تراه الآن؛ أو تتحدثَ معه؛ ثم رفضٌ داخليّ لما وقَعَ بالأمس؛ ينحُو بها إلى فِكرة قَطْع علاقتها بهِ فورًا عند هذا الحدّ.

تنكفئُ على نفسها؛ تُلقي على داخلها نظرة؛ لتُدركَ كُنهِ ما حدّثْ وما يُمكِنُ أن يَحدث، لم تَهتدِ إلى شىء؛ هذا التناقض يُعذِّبها، فتحَتْ هاتفها، أرسلَتْ لزوجها رسالة "أنا فى انتظارك".

الزوجة

لم أعبأ فى أثناء سَيْري فى شارع سعد زغلول المُزدَحِم إلا بموضع قدمي، يكفي أن أمُرَّ بسلام من بين المُتسَكِّعينَ وهُواة الفُرجَة على الفاترينات، كنتُ قادمًا من المنشية مُتعجِّلاً لألحقَ بميعادٍ هام فى فندق سِيسيل فى نهاية الشارع، يدٌ تمتدُّ من الجانب الأيمن لتلمس كتفي.

لم أصدِّق المفاجأة، أهذا معقول؟ هيَ أمامي بعد مرور تلك السنين الطُّوال؟ ووسط هذا الزحام تراني ولا تتجاهلني؟ أنا الذي لم أدرسُ بعناية اقتراحها منذ خمس عشرة سنة للحفاظ على حُبنا؟

تسمَّرتُ فى مكاني، لم أعبأ بتلك الأكتاف التى تَضربني من اليمين ومن الشمال، وهى تتماوَج لتَمُرّ من بين هذا الزحام، في لمح البَصَر دارَت برأسي هذه التساؤلات المتلاحقة، ألجَمَتْني المفاجأة، حتى كأنَّي باسمها قد غاب عن ذاكرتي ؟

لاحظَتْ مُفاجأتي وتَلجْلُجي بالقول، لم تَعرف أنَّ عبَق أنوثتها تغَلْغَلَ فى أنفي لحظة وقوع نظرتي على مُحيَّاها، قالت :

ـ ما بكَ ؟ لِمَ تَشُقُّ طريقكَ مُتسرِّعًا هكذا ؟

قلتُ :

ـ لا شيء .. لا شيء، أهلا بكِ.

فى التَّو امتثلَتْ أمام عيْنيَّ صورة لقائِنا الأخير، يا للمفُارقة، كنَّا فى محَل البُن البرازيلى الشَّهير، فى نفس هذا الشارع بعد جلسة عاصفة، لم تكن الجلسة الأولى لنتحدَّث فى أمر سفرنا معًا للخارج، جامعة شهيرة قبلتها للتدريس هناك وقالت ربما استطعنا أنْ نجدَ لي عملاً فى أية جامعة، قلتُ لها يومها:

ـ لا أستطيع السَّفر تحت زَعْم "رُبَّما" وهى مسألة لا جدال فيها مرَّة أخرى.

يبدو أنها كانت قد اتخذَتْ قرارها بالنسبة لها؛ سواء رافقتُها أو لم أرافقها، حاوَلْتُ إثناءها عن رغبتها، وحاولَتْ هى إثنائى عن تصْميمي ففشلنا، لم تَطُل المناقشة حينذاك، قالت بعدها عبارة واحدة:

ـ إذَن فلتسْتمر صداقتنا، صداقة اثنين جمعهما ذات يوم حُب صادق.

تهكَّمْتُ ساعتها على كلمة "حُب" وضحكتُ ضحكة ساخرة آلمها وقْعُها، دمعَتْ عيناها فى صمتٍ وأطرقَتْ ثم رفعتهما؛ لتنظر فى عينيَّ وتقول بصوتٍ هامس حزين :

ـ لا تسْخَر.. فقد أحببتكُ منذ أثَرْتَ انتباهي وحرَّكتَ مشاعري، دقَّ قلبي على يديكَ لأول مرَّة فى حياتي، أيقَظْتَني من غفوَتي، زلزَلْتَ كياني، اقتحَمْتَ علىَّ قلبي؛ وملَكْت زمام أمره، أحببتُكَ بصدق أيها المتغافل، حتى فى اختلافنا؛ كنتَ تُجيدُ لُعبة الشطرَنج معي، كُنتَ تتصدَّى لكل قطعة أحرِّكُها لتجعلَها تستقر فى النهاية بين يديك.

أحببتكَ وكنتُ أشعرُ أنكَ لستَ أهلاً لحُبي، كم دعوتُكَ لتُطلِق سَراحي؛ ولكنكَ أبيْتَ إلا أنْ أظل محبوسة بين ثنايا قلبك، إنِّي أتألم الآن من أجلي ومن أجلك، فلا تَقْسُ أكثر من هذا، ربما ذاتَ يوم نلتقي، فلنُبقي على ما كان بيننا وإنْ انقطعَتْ لسببٍ أو لآخر علاقتنا، وبعدها علمتُ أنها سافَرتْ وتزَّوجتْ وعاشَتْ هناك.

صحَوتُ من ذُهولى أمام قامَتها التي لا تزال تشمَخ مدَدْتُ يدي لنتصافح، فإذا بيدها الممدودة كانت تسْبقني اتَّسَعَتْ مساحة ابتسامتها وازداد تهلُّل وجهها وهمسَتْ:

ـ كيف حالكَ؟ وما أخبارك ؟.

دغْدغَتني ابتسامتها، سحَرتني الهمسة التى نطقَتْ بها اسمي، ذات النَّغم الذى تحفظه أذني، وأكمَلَت:

ـ أنتَ كما أنتَ لم تَتغيَّر، عدا بعض البياض الذى تسلَّلَ إلى شَعرَك.

تلاشَى عندي الإحساس بالمكان والزمان، لم أستطع كتمان مشاعرى وسط هذا الزِّحام، نظرتُ فى عينيها أغمَضَتهمُا وكأنها تريد أن تُطبق على هذه اللحظة، شدَدْتُ على يدها؛ شدَّتْ على يدي، سألتها :

ـ ألا زلتِ تذكرينني ؟

ـ وهل أنتَ تُنسَى؟ يبدو أنكَ الذى نسَيت.

ما الذى نسيتهُ؟ تساءَلْتُ بيني وبين نفسي ، حُبّها لي أمْ شوقي اليها؟

لم أجد ما أقولُه بعدها، كل ما لاحظْتُه أنها ارتدَتْ حِجابًا، قلتُ لأخفى ارتباكي:

ـ وأنتِ زادَكِ الحجابُ جمالا.

كانت هى فوق الرصيف فجذبَتني برفقٍ إلى أعلى، نسيتُ أنَّ يدها كانت بين يدىَّ منذ بادرة اللقاء، استدرنا حتى أصبح ظهرنا للمارة، لم تزَل تقبض على يدي، لم أدْرِ كم من الوقت مَضَى.

مرَّ أمام ناظريَّ شريط الذكريات، كم مشَيْنا فى هذا الشارع من قبل، كم غازَل هواء البحر شَعْرها فكان يتطاير ليلمسَ كتِفى.

أما هي؛ فقد شعرَتْ بغرابة حُبنا، هذا الحب الذى وإن طال عليه الزمان؛ لم يزل يضرب بجذوره فى أعماق روحنا والذى إنْ اعتقدنا أنَّ النسيان طواه مع سفرها وهجرتها الوطن؛ وزواجها من دبلوماسي شهير، لم توقفه الأيام، فقد قطع توقفه هذا اللقاء القدَريّ وعاد للسَّريان من جديد، فلم تنسَ دفقاته التي كانت تندفع من أعماق شبابها، كل ذلك كان جليًا من نظراتها وابتسامتها.

يدٌ تنقُر ظهري من الخلف، لم أشعر بها لولا أنها نبَّهَتْني سَحبتُ يدي من يدها .. استدرتُ إلى الخلف .. زَوجتى وقد عادت من عملها الكائن فى نهاية ذات الشارع، سألتُها:

ـ متى جِئتِ ؟

قالتْ :

ـ منذ ابْيضَّ شَعرُك !

نهاية عزاء

ودَّعناه بالعَبَراتِ، بالأَنَّاتِ، بالحزن الدَّفين، كان شابًّا كان تقيًّا، كان بارًّا، كان وكان، ولكنَّ الأمر قد انتهَى، لقد مات رحمه الله.

انعقدَ الصِّوان وأُقيمَ العَزاء، كان الأسَى هو سيِّد المشهد، علامات الحزن تكسو الوجوه، ساعتان .. ثلاث، انتهَى المأتم.

سحبَ العُمال سلالمهم الخشبية الطويلة وانتشروا فى المكان يتسلقونها فى مهارة القرود؛ شُروعًا فى فضِّ السُّرادق.

البعض يَرُوح ويجيء بخطُواتٍ رتيبة، والبعض يقترب من الآخر يهمِسُ عباراتٍ لم أستطع سماعها؛ ونظراتٍ تتقابل بنظراتٍ فى صمتْ لم أجد تفسيرًا لها.

انتحَى عَمِّي الكبير رُكنًا وراح يدوِّنُ فى ورقة، عددٌ غير قليل من أفراد العائلة يقف على مَقرُبةٍ منه؛ وقد عقدوا السَّواعد على الصُّدور؛ وكأنهم يَهابون الاقتراب، ماذا يفعل عَمِّي، لفَتَ نظري هذا الأمر.

كنتُ صَبيًا، ولكني كنتُ مُدركًا، هل يُدوِّن عَمِّي مذكراته عن هذا الحدَث الأليم؟ هل يُعبِّر عن مشاعَره قبل أن تُغادره العبارات والأحاسِيس؟

لم أستطع ساعَتها تَوقُّع الاحتمال الصحيح، مِلتُ على أحد أعمامي أسألهُ فى همسٍ:

ـ هل عَمِّي يُدوِّن مذكراته ؟

تَساؤُلى أجبَرَ شفتيه على الانفراج عن ابتسامة باهتة فى هذا الجو الحزين، لم أكُن أعلمُ حينذاك أنَّ العائلة تتكافل فى مصاريف العَزاء قبل أن يقول:

ـ ألم تَر أنَّ الأمرَ قد انتهَى ؟ إذَن لابد من حِساب.

أُنوثةٌ منسيَّة

لم تكن مُلهِمَتي بجانبي حين استَغرَقتْني الكتابة فى ذلك اليوم؛ إلى حَدِّ الانفصال عن المكان والزمان، لكنَّ شيئًا ما كان يُقلقني.

طلبتُ فنجانًا من القهوةِ ولكنَّه حتى تلك اللحظة لم يأتِ، تذكَّرتُ أنَّ ذلك كان منذ وقتٍ طويل، ناديتُها، سألتُها وعيناىَ لم تُغادرا لوحة مفاتيح الكتابة:

- أين قهوتي ؟

جاءني صوتها الساخر :

- القهوةُ أمامَك منذ زمنٍ، ولكنِّى أعرفُ أنكَ لا تستسيغها باردة.

اعتذرْتُ لها وعاوَدْتُ الكتابة، مرَّرَتْ يدها بحُنوٍّ على ظهري وهى تنصرف.

انتظرتُ أنْ تأتيني بغيرها دون جدوَى، لماذا تُهمِلُني فى هذا اليوم هكذا، اشتدَّ بىَ القلق ماذا دهاها.

ناديتُها من جديد :

- أين قهوتي؟

نظرَتني نظرةَ إشفاقٍ وقالت بصوتٍ دافىء وهى تبتسم:

ـ ها هي الأخرى أمامَكَ منذُ نصف ساعة.

كرَّرتُ اعتذاري لزوجتي، كرَّرَتْ نظرتها المشفقة علىَّ ولكنها لم تنصرف فورًا كالمرَّة السابقة، نظَرتْني بإشفاقْ مرةً أخرى، آلمتني النَّظرة، بل جعَلتني أشكُّ فى قُوايَ العقلية.

أشحتُ بوجهي عن لوحة المفاتيح، شردْتُ لأنظرَ إلى لا شىء فى سقف الحجرة.

صوتُ باب الحجرة ينفتح، عادَت للمرة الثالثة؛ ولكن فى هذه المرَّة بكوبٍ من عصير الليمون وضعَتْهُ أمامي ولم تنصرف، قالت :

ـ ما الذى يُقلقك ؟

أفَقْتُ من عالمي المسحور على يدها؛ وهى تمسح برفقٍ على رأسي، اكتشفتُ أنها لم تكن جالسة معى كعادتي وأنا أكتب، ثم شرَعتُ أُنقِّحَ ما كتبته.

عبوة زهرة

لاحَظَتْ انزواءَه كثيرًا فى مكتبه، جُلُّ أوقاته يقضيه مُنفردًا وكأنَّ شيئًا هامًا يشغله، تُفاجئهُ غيرَ مرَّة؛ فيُسرعُ إلى إغلاق أجندة طالما يُطالعُ فيها شيئًا ما، يُداوم على ذات الفعل؛ كلما انفرَد بالأجندة وكلما كانت تُفاجئه.

يُساورها القلق، تبدأ فى مراقبته، يضع الأجندة أمامه كلما جلس إلى المكتب، يُغلق عليها دُرجًا خاصًا إذا غادَره، وفى أسفاره لا تفارقه.

تُحاول الوصول إليها فلا تستطيع، تسألهُ فلا يُجيب إجابةً شافية، تطلب مُطالعتها يتهرَّب، تُعاود الإلحاح عليه يقول :

ـ فيها حسابات قديمة.

يتَملَّكُها الفُضول ويستبدُّ بها القلق، تدخلُ على أطراف أصابعها؛ وهو يُطيل النَّظر ساهمًا إلى شىء ما ... طَىَّ صفحاتها .. تخطفُها، ينتفض واقفًا، يُحاول استردادها، تُهدِّده بأنْ يبتعد؛ وإلا ألقَت بها من النافذة.

يسْتسلمُ ويبتعدْ، يتوسَّل إليها لتُمسكها برفق، لم تَسمع له، فتحتها عُنوة، قهْقهَتْ قهقهةً عالية، ليس فى الأجندة إلا زهرةٌ يابسة.

ـ يا لكَ من معتوه.

اقتربَ ليُعيدها، زمجرَتْ، تبحث عن سطور مكتوبة فلا تجد، تزداد قهقهةً، تَناثَر حُطام الزهرة، تطايَر فى الهواء، تتعلق عيناه بالحُطام وهو يتساقَط أرضًا.

ألقتْ زوجته بالأجندة على طرف المكتب وغادرتهُ، عاد إلى مكتبه، أمسكَ بالأجندة وفتَحها، خلَت من الزهرة اليابسة، تحطَّمَتْ، نُثارها اختلط مع غبار الغرفة، اغرورَقتْ عيناه بالدموع، صاحَ فيها ثائرًا:

ـ ما الذى فعلتِه؟ يا لكِ من قاسية، قلبكِ قُدَّ من حَجَر، لا تعرفين الرحمة.

يجلس إلى مكتبه، يضع رأسه بين يديه ويَرُوح فى نوبة بكاء.

عادت إليه، هزَّتهُ من كتفيه، أصرَّت على معرفة ما يحدث، لم يقوَ أن يبوح لها؛ أنَّ الزهرةَ كانت هدية من حبيبته التى ضاعت منه بسببها، لَمَّا عقد والداهما صفقة تجارية ليتزوج منها.

الزيارة انتهت

سلامتكْ، هَمسَتْ بها وهى تحضنُ يديهِ بيديها، دغدَغَتْهُ هَمْسَتها، نسِيَ آلامه وانتَشَى فجأة؛ وشعَر بحيوية تسري فى أوصاله.

تَحامَل قليلاً، يَسْحبَ جزءًا من جسده المُمدَّد إلى أعلى ثم التقط "ريمُوت" السَّرير وضغَط عليه ليجعلهُ فى وضع شبه الجالس.

تنظر إليه بعينين حزينتين ثابتتين اختلط فيهما الحزن بالشَّوق، عبَثًا يحاول الهروب منهما دون جَدوَى؛ قبل أن يختلجَ لهيب الشوق فى صدره تحت رُكام الذكريات، استجمَعْ في عينيه حُبِّه كله وغمرَها به فى نظرةٍ حالمةٍ.

تستمر فى همسها :

ـ أتدري ما كنتُ أشعرُ به طوال الأيام التى مضَتْ؟ لم أكُن أنامُ شوقًا إليكْ، كانت تزداد دقَّاتُ قلبي، كِدتُ أسمعها كلَّما تذكرتُك، كنتُ أنتفِضُ حين يُخالجني صوتُك، وأشعر به وكأنى أسمعُكَ كما كنتَ تُكلمني .. كانت روحي تستقبلهُ استقبالاً خاصًا، ثم تُحيله إلى إشارات من نوع أكثر خصوصية تسري بسرعة البرق فى جميع كياني، أستحضرُكَ فى غيابك،

عِشتُ معكَ ذكريات السنين، ولكنّي ما شبَعتُ يومًا من استحضارك فى أحلامي.

لم أعرفُ أنَّ الحبَّ طوفانٌ لا يَقوَى على اعتراضه سَدٌّ مهما كانت قُوَّته، ففى لحظةٍ ما؛ ينهارُ السَّدُّ ويعود الطوفان ليجرفَ جميع العوائق ويروى العَطش، حُبكَ كان الطوفان، والسنون كانت السَّد الذي انهار مع دُخولك المستشفى؛ فإذا بالطوفان ما يزال يتدفق فى أرضي العَطْشَى.

تُواصلُ همسها من قلب تنهيدة :

ـ نَسيتُ ما مَرَّ من عمري، وها أنتَ تعيدُني بعد أنْ شاخَ العُمْر إلى عُمْر الصِّبا، فهلاَّ ارتميْتُ على صدركَ وزرَعتُ اشتياقي فى كل أنحائه، هلاَّ أُمَرِّغُ شَعْري على جَسدكَ العليل وأدفِنُ ذاتي فى ذاتك، هلاَّ كشفتُ لكَ عن مكنوناتٍ كانت من قبلُ كالتِّبر المُغطَّى بالشوائبْ، ولَّما كُنتَ فقد انصهَرَتْ لأعرف من خلالها ذاتي، لم يَحْدث لِيَ ذلك فى الماضي، فهل أجرُؤ الآنَ على ذلك.

تترك مقعدها المُواجِه للسَّرير وتقترب منُه، تتأمَّلهُ وكأنها تراهُ لأول مرَّة، تُطيل النَّظر إلى عينيه، اغرَورَقَت عيناها بالدموع.

انزاحَ قليلاً ليُفسِحَ لها مجلسًا إلى جواره على السرير تجلسُ بحذَرْ، تُطوِّق كتفه بذراعها.

تدفعها رغبة لأن تطبَعَ على جبينهِ قُبلة، مالَتْ نحوه، حرَّكتْ شيئًا فى داخله؛ انتصبَ جسده الذى أنهكتهُ الأدوية، أما هى فاشتعَلَتْ رغبتها فى التوَحُّدِ مع جسده.

نظرَ إليها نظرةً مُفعمةً بالحب، مالتْ عليه بنصف جسدها الأعلى؛ اقتربَتْ من وجهه، صارت شفتاها على مسافة سنتيمترات من شفتيه، طَرْقٌ مُفاجئ على باب الغرفة، تنفصل عنه، عامل الاستقبال بالمستشفى:

ـ من فضلِكْ سيدتي .. الزيارة انتهَتْ !

وتستمر الحياة

"على هذه الأرض ما يستحق الحياة .. محمود درويش"

استحالَ البيتُ قبرًا صامتًا، لم يكن للأرملة الثلاثينية من أحد فى الدنيا سِواه، تشعرُ أنَّ الوقت لا يريد الانقضاء؛ كأنَّ اليوم صار مائة ساعة؛ وليس أربعا وعشرين، تحسَّرَتْ على جنينها الذى أسقَطتْهُ عامدةً بعد أن طلبَ منها زوجها الراحل تأجيل الإنجاب.

تملَّكَها الحزنُ حتى أصابها المرض، زهدَتْ الطعام والشراب؛ لا تقربها إلا إذا أحسَّتْ إعياءً شديدًا؛ أو شعرَتْ بدوار، ظهرت عليها النَّحافة اللافتة وغارَت عيناها وتملَّك منها الهزال إذ كاد أن يُقعدها.

فى لحظة ما تسْتشعرُ خطرَ حالتها؛ وتتساءل: من سيرعاها إذا أنهكَها المرض على نحو أكثر؟ وإذا ماتتْ وحيدة فمَن سيكتشف جُثتها؟ دارتْ برأسها هذه التساؤلات فقرَّرت اللجوء إلى طبيب.

تذكَّرَت صديق زوجها الذى كان لا يفتأ يُبارحَهُ حتى مات، قصَدَتْ عيادته تجرُّ ساقيها جرًّا من شدة الهُزال يستقبلها بعينين دامعتين وصوت تَهدَّج بالذكريات مع

صديقه، لا تتمالَك نفسها، تجهش بالبكاء حزنًا على أيام خلَتْ.

يُغادر مكتبهُ إلى حيث المقعد الذى تجلس عليه أمامه يربُتُ على كتفها، يُسائلها عن أحوالها ثم يُصغى إليها جيدًا.

تحكي له عن أعراض المرض، ثم تُعرِّج إلى حديث عن إحساسها القاتل بالوحدة والملَل .. يطلبُ منها عددًا من التحاليل والأشعات.

لم تتلكَّأ فى إجراء ما طلبَهُ منها، أنجَزَتْها بسرعةٍ فائقة وعادت إليه.

يُطالع التقارير وصور الأشعات؛ ويعرف خلُوها من الأمراض العُضوية، يختلسُ إليها النظرات، تتقابل إحداها بعينيها، ترتبكْ، يعودُ ببصره سريعًا فيصطدم ببرواز على حافة مكتبه، يُدير البرواز برفق عكس مَرْمَى بصرها؛ حتى لا تلحظه، لم تُسعفهُ حركتهُ السريعة إذ تلْمَح فيه صورة زوجها معه، تمدُّ يدها بهدوءٍ وتديرهُ ناحيتها، تُطيلُ إليه النَّظر، اغرورَقتْ عيناها بالدموع من جديد، يَربُتُ على كتفها، يُسَرِّى عنها، ثم يصفُ لها بعض المقوِّيات ومُكمِّلات الغِذاء على أن تعودَ بعد أسبوع، وعلى أن يَطمئِن عليها هاتفيًا.

لم يشأ أن يُخبرها حينَ عادَت إليه لتُحيطهُ بالنتائج؛ أنَّ التحاليل والأشِعَّات لم تُسفر عن مرض عُضويّ؛ وإنما أثَرَ أن يتركَ لها مساحة تشعرُ خلالها بحاجتها للعودة إليه.

ذات مساءٍ تردَّدَتْ فى رفْع سماعة الهاتف لتتحدث إليه، وفى أثناء حيرتها القاتلة؛ سمِعَتْ صوت الهاتف، رفعَتْ السماعة أثناء الرَّنة الأولى؛ لتجده على الخط فى الجِّهة المقابلة.

كان صوتهُ يتهلَّل ونبراتهُ تُعلِن عن بهجة، أخيرًا وجدَتْ مَن يُحادثها، تمنَّتْ لو كان فى كل يوم يطلُبها.

تَجاوَز الاطمئنان عن صحَّتها إلى مناح عادية من مَناحي حياتها، أعطاها من وقتهِ المساحة الكافية لأن تسْترسِلَ كما تشاء حينما شعرَ بلهفتها نحوه.

فى اليوم التالى جاءتْهُ حاملةً كيس الدَّواء، وادعَّتْ أنه لم يعُد يلزمها، فحالتها تتحسَّن ولا تشعر بذلك الأرق الذى كان سيَفتِكُ بأعصابها، ولا بذلك الهُزال الذى كان يُعييها.

حين تلَجْلَجَتْ فى الكلام قبل أن تُغادر؛ استشْعرَ رغبتها فى أن تقول شيئًا؛ ، سألها برفق :

ـ هل تريدين شيئًا؟

تهلَّل وجهها وانفرجت شفتاها عن ابتسامة صافية وقالت فى دلال:

ـ كيف عَرفْتَ ؟

بادَلها الابتسامة:

ـ شعَرْتُ بكِ.

دارت الغرفة بها؛ إذ وقعَتْ تلك العبارة على سَمعِها كوقع طوْق النجاة بالنسبة لغَريق، انقلبَتْ ابتسامتها إلى ضحكة هادئة نديَّة، ردَّتْ بصوتٍ هادئٍ رخيم :

ـ وماذا تتوقع أن أطلبَ منكَ ؟

ـ اطلبي ما تشائين.

ـ لدىَّ مشكلة فى الميراث مع أهل زوجى؛ وأريد رأيك.

ـ ما هى.

ـ لقد أطلتُ عليكَ اليوم، والعيادة ليسَت مُناسِبة للحديث.

بعد انتهاء عمله تقابلا فى نادٍ اجتماعيّ، تكلما فى كل شىء وأى شىء إلا الميراث.

فى اليوم التالى حرَصَتْ على أن تكون آخر زائرة له فى العيادة، فاجَأتْهُ، ضغَط زِر الجرَس، طلبَ من الممرضة أن تنصرف.

كان المرَح يكتنِفُ حديثها، وابتسامة دامَتْ طوال الحديث تعلو شفتيها، تحدَّثا كثيرًا، وضحِكا كثيرًا، وجدَتْ فيه حياةً جديدة.

حان وقت الانصراف، شاركها خطواتها حتى الباب اتَّسعَتْ ابتسامتها، مدَّتْ يدَها لتُصافحه، شَدَّ عليها ولم يتركها، نظرَتْ فى عينية نظرة طويلة حانية، شارَكها النظرة بحنانٍ أكثر، أطْبَقَ الصمتُ على المكان، اقتربَتْ منهُ، ضمَّها إلى صدره، فوجئ بارتمائها فى حِضنه، عاد بها إلى أريكة تقعُ إلى جوار المكتب، جلسَا، تعانقَا، رَنَّ هاتفها، انفلتَتْ من بين أحضانه، تُغادر؛ لتستمر - بعد المرحوم - الحياة.

خارج المشهد

تضمُّها الأم إلى حِضنها بإحكام شديد، تعزلُها عن العالم كشَرنقةٍ تُخبِّئ فيها انهيارها، تقتحمُ العزاءَ سيدة فارهة؛ تلفِتُ الأنظارَ بأصباغ وجهها الصَّارخة؛ وملابسها الغريبة التى لا تُناسبُ جَلال الموقف.

تقع عليها عينُ الأم فترتعدُ وتتشبَّثْ بالفتاة، تُغمضُ عينيها كأنما تعيش كابوسًا ستصحُو منهُ على اختفاءِ هذا الخطَر الذى عاشَتْ تحت تهديده؛ وخشية وُقوعه سنوات وسنوات.

تقصدهما تلك الفارهة مباشرةً، تمدُّ يديها بشراسةٍ لتفصلَ بينهما، يسودُ الصمتُ ليكون سيِّد المشهد، تتلصَّص العيون ناهشةً بلا رحمة، بنبرةٍ حادةٍ ووجه مُتحَجِّر تُوجِّه حديثها للفتاة:

ـ قُومي معي ، أنا أُمُّكِ وليسَتْ هذه !

تظهر علامات الصَّدمة على وجه الأم، همهماتُ وهمس النساء تُجيب عن سؤالٍ لا يجرؤ أحدٌ على طرْحِه.

عينا الأم تبحثان عن علامة تكذيب أو رفض لما يحدث فلا تجد، الوَجَع المجنون يخترق روحها بلًا رحمة.

تستمر في حديثها غير مُكترثة بالاستغراب والفُضول اللذين سيطرا على المشهد، ولا بالرُّعب الذي تملَّكَ الأمّ والفتاة :

ـ أنا أُمُّكِ، أنا التى حملتُكِ فى بطني، حان الآن موعد عودتكِ لي، ذلك الظالم الذى ماتَ حرَمني مِنكِ، هدّدَني بالقتل إنْ حاولْتُ الوصولَ إليكِ، زوَّر ودلَّس ليمْنحَكِ لهذه القاسية كابنة، كل هذا لأنِّي أردتُ حياةً أفضل بعيدا عنه سأمنحُكِ كل شيء، أموالي، وعماراتي، وعيادتي؛ بشرط أن تقومي الآن معي.

تنقِل الفتاة عينيها إلى الأمِّ كأنها تلوذُ بها من هول ما تَسمع، تنهمرُ دموع الأمّ، نهنهاتها المكتومة تُزلزل جسدها، الصورة تؤكد للفتاة صِدق ما سمِعَت، ولكنها لم تشعُر طيلة سِني حياتها العشرين أنها ليست أُمُّها، لم تُفرِّق بينها وبين بناتها الأربع فى المعاملة، بل كانت هى الوحيدة من بينهن المدلَّلة، تظلُّ مُحملقة فى الأمِّ وقد اتسَعَتْ عيناها بشكل مُريع، أدركَتْ الأمُّ التساؤل الذي يصرخُ من عينيها، ربتَتْ على كتفها، همسَتْ فى أذنها وهي تحتضنها:

ـ هى أُمُّكِ، كانت زوجةً لأبيك من قَبلي، ثم تركَتْكِ فور ولادتك مقابل تطليقها، ولكنكِ بنتي أنا.

تغادرُها الفتاة، تتوجَّه بخطواتٍ ثابتة نحو تلك الغريبة تتفرَّس وجهها، رأتْ فيه قسوة، تمالَكتْ نفسها وواجهَتها:

ـ حمَلتِني في بطنِك؟ ألهذه الأمارة فقط أنتِ أمِّي؟ القطط تحمَل، والكلابُ تحمَل؛ ولا تترك صِغارها، تقتحم عليهم النارَ عند الخطَرْ، وضمَّت الأم واستأنفَت بصوتها العالي:

ـ هذه، أمِّى، مَنحَتْني أمومة فعلية وليست مُفترضة، تفرَّغتْ لي ولم تبحثَ مثلك عن حياةٍ أفضل، غمرَتْني أكثر من إخوتي بحنانها، كنتُ أتساءل لماذا، واليوم فقط عرفتُ السبب.

ردَّت تلك الغريبة:

ـ غشَّاشةٌ هي مثلُ زوجها، شاركتْهُ فى التزوير لينسباكِ إليها فى شهادة الميلاد، لن أرحمكما، سَأُبلغُ ضدها اليوم.

ـ لم تعبأ الفتاة بما سمِعتْ، نظرَتها كانت لا تخلو من احتقار وأعلنَتْ عن زُهدها:

ـ اذهبي بأموالِك وعيادتكِ وعماراتكْ، جميعها لا تُساوي عندي ثمن سهرةٍ سهَرْتها بجانبي فى حالة مرض، ولا كوب شاى أعدَّتهُ لي فى ليلة باردة؛ وأنا أستذكرُ دروسي، ولا كلمة محَبَّة لم أسمعُها من غيرها، اُخرجي من هنا.

انتفخَتْ أوداجُها وهى تسُبُّها، ثم اقتربَت ورفَعَتْ يدها عالية فى الهواء لتهوي بها على وجهها، نهضَتْ إحدى المُعزِّيات لتفصل بينهما، أمسكَتْ بيدها وراحت تنهرها:

ـ تقولينَ عيادتك، ولكني لا أرى أخلاق طبيبة؟

تلوذُ الفتاة بحِضن الأم، تحتضنها الأمُّ بذراعين كادتا تُحطِّمان ضلوعها، يعلو صوت بكائهما معًا، تُزلزل النهنهات المكتومة جسديهما الملتصقين، تقول الأم وعباراتها تختلط بالنحيب:

ـ لن أفرِّطَ فيكِ مهما كان الثمن، أنتِ قطعة من قلبي، لم أحملكِ فى بطني، ولكن فى عُيوني وروحي وقلبي، أبوكِ لم يظلمُها، هى التى طلبَتْ منه الطلاق على أن تتركك، أنتِ بنتى أنا ..

هزَّ المشهد مشاعر المعزيات، بكَت العيون ولكن ليس على الميِّت، نسِينَ المتوفي وانهالتْ دموعُهنَّ فرحًا باحتضان الفتاة للأمِّ التي ربَّتْها.

يسودُ الصمتُ أرجاءَ المكان، تنظرُ الغريبة من حولها فلا تجد من مُتعاطفٍ، العيونُ تنهشها، الوجوهُ تقسُو عليها تتلفت يُمنة ويُسرة فى عصبيةٍ شديدة، تَنْسلُّ صوبَ الباب مُطَأطَأة الرأس؛ خارجةً من المشهَدْ.

أُمومَة

لم يُغادرُها جمالها؛ وقد شارَفَتْ على السِّتين، أرستقراطية من عائلة معروفة، كانوا لا ينادُونَها إلا بالملكة، اعتادَتْ قضاء جُلِّ أوقاتها فى النادي الشَّهير حتى صارَت من معالمه.

فجأةً؛ أصبحَتْ حديث النادى، تردَّت في هاوية حُبِّ شاب من عُمْر أبنائها، بل ربما من عُمْر أحفادها، ما الذى دهَاها؟ ولماذا هذا الشاب بالذات؛ الذى ظهر من وقتٍ قريبٍ فى مَلعب "التنس" بصفته لاعبًا مُتمكنًا، هل جذبها بُنيانُ جِسمه الرياضيّ ووسامته؟

هل جُنَّت لتُفكِّر فى الزواج منه، هل ركبتْ تلك المُوجة التي ضربَتْ أوساط الشباب، ارتفاع الأسعار وبطالة أكثرهم حدَتْ بهم للزواج من مُسنَّاتٍ يملِكن المال والسَّكنْ، وإذا كانت تُفكر فى مثل هذا، فهل هو يَقبل ولم يزل فى ريْعان الشباب؟ أمْ أنهُ من أولئك المتسلِّقين الذين يبيعُون فُحولتهم لقاء مال؛ ولو كان فى صورة زواج غير مُتكافىء من أية ناحية؟ ذلك ما كانت تتهامَس به النسْوة من أعضاء النادى.

لم تعبأ بغمزهِن ولمزهِن ولا بنظراتهن المريبة، ولا بما كانت تلحظه من مَصمَصة شفاهِهن.

منذ لَمَحَتْهُ فى النادى سعَتْ إليه، وجدَتْ فى نفسها رغبةً جامحة تدفعُها للاقتراب منه، تنتظرهُ عند باب الدخول، ترافقهُ فى التحركات بالداخل أينما ذهب، تحضر "ماتشات" التدريب، تجلس فى المكان المخصَّص للمتفرِّجين حتى ينتهى، لا تنصرف إلا بعد أن يذهب، أو تصطحبه فى سيارتها عند الانصراف.

تقرَّبت منهُ أكثر وأكثر، توالت اللقاءات عَيانًا بيانًا أمام صديقاتها وأقاربها، وإذا غاب لا تتورَّع عن السؤال عنه، لم تعبأ بما يُقال؛ وما يُمكن أن يُقال، وربما لم يخطر ببالها ولم تفكر فى تبعات سلوكها.

تعلَّق بها الشاب كما تعلَّقَتْ به، نسِيَ أن علاقته بالنادى مجرد علاقة لاعب تِنس، صار يتلهَّف على الذهاب إليه، لا من أجل اللعبة؛ ولكن من أجلها، لمسَ فيها حنان الأم التي لم يعهدها منذ طُلِّقت أُمّه من والده وهو فى عُمْر الصِّبا؛ وتركتهُ لتقسُو عليه زوجة أبيه، لأول مرَّة يشعَر بمن يسأل عنه، بمن يُتابع تفوُّقهُ الرياضيّ، بمن يُتابعه في تحركاته؛ هل عاد للبيت سالماً أمْ لم يَعُد؟ بمن يطمئنُّ عليه إذا غاب.

تطوَّر الأمرُ مما زاد من فضول الآخرين ووسَّع من دائرة الثرثرة حولها، يأتيان معًا فى سيارتها الفارهة؛ ولا يغادران إلا

معًا؛ لاحظ الآخرون شيئًا جديدًا لم يعهدوه عليها من قبل، ترتدي الملابس الرياضية أحيانًا؛ وتُلاعبهُ كرة المضرب،يا لَلْجُنونِ الذى ضربَ عقل هذه المتصابية .. هكذا كانوا يسْتنتجون من مُتابَعتها.

نسِيَتْ نفسها ذات يوم؛ بعد أن فاز على منافسه فى مسابقة التِّنس، راح يجري نحوها وهي وسط المدرجَّات بعد إعلان فوزه، لمحَتْهُ قادمًا متهللاً على هذه الصورة، قفَزَت من موقعها، فوجِئ الحُضور بها وهى تتلقَّفهُ بين أحضانها وتمطرهُ وابلاً من القُبلاتِ؛ غير مكترثةٍ بمن حولها، وكلما حاول إفلات نفسه منها، كانت تضمُّه أكثر وكأنها تمنعه.

سرَى أمر هذا الحدَث فى النادي سريان النار فى الهشيم وتجاوَز أمر تناقل النَّميمة إلى حدِّ أن بَلغَ أمَّ الشاب.

تُهرع أمّهُ إلى النادى ونار الغيرة تنهش فى قلبها، كان ابنها يُجالسها فى البهو الكبير؛ وقد أمسَكتْ بيده وسطَ الحشود.

اقتربَتْ منهما، أمسَكتْ كوب العصير وألقتْ به فى وجه الملكة، ثم راحت تمطرها وابلاً من الشتائم:

ـ أيتها العجوز المتصابية؛ مالَكِ وولدى؟ ألا تسْتحين؟ إنه من عُمْر أولادك، هل تريدينَ له دفْن حياته مع كركوبة مثلك؟

انتفضَت الملكة واقفة، نظرَتْ من حولها، ترنَّحَتْ فى وقفتها، سقطَتْ على الأرض مغشيًا عليها.

هَرجٌ ومَرجٌ نال من رُوَّاد البهْو، أمسَكَ طبيب بساعدها جَسَّ نبضها، قرَّبَ أذنه من أنفاسها، ضغط براحتيه المفتوحتين على صدرها، صاح أحد الحاضرين:

ـ أُطلبوا الإسعاف.

أردفَ الطبيب بعبارة:

ـ "لا داعي .. البقاء لله".

لم يبق أمام النساء الحاضرات إلا أن يطرحْنَ عليها غِطاءً من أغطية المناضد.

لم يتمالَك الشاب نفسه، راحَ يصرخ بوجه أمّه:

ـ قتَلتِها أيتها القاسية، ما الذى جنَتْهُ عليكِ، إنها أُمى التى شعرتُ بحنانها، أما أنتِ فقد تركتِني وذهبْتِ إلى نزواتك.

كانت بعض متعلقات الملكة قد سقطَتْ من حقيبة يدها، مال على الأرض يجمعُها ويرفعها على المنضدة، تلمح أمّهُ صورة له معها وهى تميل فيها على كتفه، أمسَكَتْ بها قهقهَتْ؛ وهي تقولُ بسخرية:

ـ أيَصِلَ أمركما لأنْ تحتضنكَ هكذا؟

يثور فيها من جديد :

ـ ليسَت صورتي أيتها المتجَنِّية، صورة ابنها الذى يُشبهني تمامًا ومات فى حادث منذ عام.

صهيل امرأة

ثارَ فى وجْهي، نَعتَني بالطيْش والبلاهة؛ قائلاً إنهُ أعلم مِنِّي بمصلحَتي، وحينما أتزوج سأُدركُ كم كنتُ صغيرة العقل سطحية التفكير.

حاولتُ مقاوَمة هيمنته علىَّ من دون جدوَى، قررتُ أن أكون واضحة معه؛ ولكنه كان يرُدّ بشراسة، عجزتُ أمام صدِّه لي عن التصريح بحُبِّ صديقي الذى تخرَّج معي فى الجامعة؛ وفضَّلَ إتمام دراسته فى الخارج، لم يعرف أنَّ حُبنا ما زال مستمرًا، يراسلني وأراسله؛ وأثقُ فى رجولته وحُبه الغامر لي، رضختُ للأمر صاغرةً؛ ورضيتُ بأوامر والدي ومنطقه الذى يُساير المجتمع، لابد للبنت أن تُستَر بأي رجُل متى حانَت الفرصة.

ذلكَ الذى تحمَّسَ له والدي، شابٌ أربعيني صادفَني ذات مرَّة فى الطريق؛ وتَبعني حتى أنهيتُ تسوُّقي، اقترب منِّي ليُحادثني، رمقتُه بنظرة حادة وأعرضتُ عنه، تبعَ التاكسى الذى أستقلهُ بسيارته الفارهة حتى عُدتُ إلى منزلي، لمحتُه وهو ينصرف بعد أنْ التفتَ نحوي.

تَقدَّم لخطبتي، لم يُقاوم والدي ضخامة ثروته وقُوَّة جاهه، تاجرٌ لديه عدة فروع لبيع ملابس المحجبات، أُعْجِبَ

بلحيتَهِ المُهذَّبة وشاربه المرسوم بعناية؛ ووجنتيه منزوعتيّ الشَّعر، واعتبرها إحدى ميزاته، فالمتدين يُعامِل بمعروف أو يُسرِّح بإحسان، هكذا قال والدي.

حتى أمِّي وإن بدَتْ فى بعض الأوقات ساهمة لحُزني؛ إلا أنها كانت تُصبِّرني بأنَّ الحب يأتي بعد الزواج؛ وبأنَّ الشاب مُتديِّن ولن يظلمني، ولأنه قد مرَّ عامان على تخرُّجي فقد صِرتُ كبيرة.

تمَّ كل شيءٍ سريعًا وانتهَى بالزواج، كان حفلاً أسطوريًا بأحد الفنادق الكبرَى، لم أنبَهر له، كم كنتُ أتمنَّى حبيبي ولو كان زفافي عليه دون مراسم.

دفنَتُ مشاعري؛ وأهَلتُ عليها تُراب النسيان؛ حتى لا تهُب عواصف الماضي؛ فتُثير فى حياتي زوابع الألم، اعتبرْتُ أنَّ ما تمَّ هو اختيار القَدَر، وخيرٌ لي أنْ أحِب واقعي بدلاً من البُكاءِ على ما ضاع.

مرَّت الأيام رتيبة؛ لم يَنتشلني من رَتابتها سِوى هُروبي إلى عالمي الخاص الذى يُهيمن عليه حبيبي، رُحتُ أشغل نفسي بالمتعات السَّطحية، التي تُوفرها حياة الثَّراءِ لأصحاب المال، حاولتُ الاقتناع بأنها بديلٌ لمُتع الحُب الشاعرية العميقة التي لا يهبها لنا إلا مَن نُحب.

تأقلمْتُ على العيْش معه، قطعْتُ صِلتى بمَن أحبَبْتُ فى صمتٍ طيلة حياتي معه، استبْدلتُ شريحة هاتفي بأخرَى تحمل رقمًا جديدًا حتى لا يُحدِّثني كما اعتاد كل أسبوعين، ولكن صورته لم تفارقني، وكلما تخيَّلتُ حزنه إذا ما عَلِم بخيانة عهدي لهُ، أو كيف ستكون صورتي لديه؛ أحسُّ بمرارة شديدة.

منذ بداية علاقتنا أحسَسْتُ أنِّى أعاشِرُ شخصًا غريبًا عنِّي، لا مشاعر لديه ولا دفء في حديثه، ولا فى تعامله، حاولتُ لفْت نظره تلميحًا غير مرَّة؛ ثم تصريحًا ألف مرَّة، وفى إحداها ضاق صدره وثار ثورةً عارمةً، صفَعَني يومها؛ وقال وقد انتفخَتْ أوداجه:

ـ أنا هكذا إنْ كان يُعجِبك، وإلا فالدَّرْب مفتوحٌ أمامكِ إلى بيت أهلِكْ.

شكوتُ إلى أمِّى فلم تنصفنى، قالت ربما ساعة غضَب، وربما ضُغوطٌ عليه بسبب عمله؛ ثم دعَتْني لاحتمال طبعه.

ذكَّرتني تلك الصفعة؛ بعُنفه ليلة أنْ دخَلَ بي، هجَم كالثَّور الهائج دون مقدِّمات، ذكَّرتُه باستحسَان الصلاة معًا أولاً، ضحِكَ بصوتٍ عالٍ وقال ساخرًا:

ـ ليس كل ما يُقال يُفعَل.

آلمتني قسوته المستمرة مَعي، تحاملتُ على أجواء الموت التى تحاصرني لتستمرَّ الحياة، إلى أنْ كان ما لم أتحمَّله؛ عُدتُ إلى منزلي من زيارة أمِّي على غير موعد؛ لأجدَ الخادمة فى سريري بين أحضانه، عدتُ أدراجي مُحطَّمة النَّفس والقلب فى آنٍ واحد، لم يستحِ عند المُواجهة، راح يُكرِّر ذات العبارة:

ـ أنا هكذا لو تقبلين.

لم أقبَل؛ وحسنًا ما كان يريده من تأجيل الإنجاب؛ ثم كان الطلاق؛ وبدأتُ أستعيدُ طاقتي على الحياة، أستعيدُ تلك الأيام الخَوالي فى الجامعة، تذكَّرتُ حبيبي، حُبّه لي، وحنوُّه عليَّ، والاهتمام بي طيلة فترة دراستنا.

لقد أخطأتُ من أوَّل الأمر؛ عندما قبلتُ الزواج منه ولكن ماذا كانت تستطيع فتاة مثلى؛ بإزاء رغبة والدها وقناعته، فأية حمقاء هذه التى ترفض الزواج مِمَّن رآه هو لا يُرفَض.

وليتَ أبي قد اعترفَ بخطئه فى حقي، بل عاد بعد أن هدأتُ قليلا؛ يحدِّثني فى أمر رُجوعي إلى بيْتي، واجهتُه فى هذه المرَّة بما لم أستطع أن أواجهه به من قبل، أفهمتُه أنه أمر يخصُّني، لم أعُد تلك البِكْر التي يُقدِّرون لها كيف تكون

حياتها، ثار ثورة عارمة، تدخَلَّتْ أمِّي ولكنها لم تنصفني، بل حاوَلتْ إقناعي بالعودة إليه؛ قائلةً إنها نَزوة لا يجب أنْ تَهدم بيْتًا، صرَختُ فيهما، هدَّدتُهما بالهروب من البيْت إذا استمرَّا فى إجبارى على العودة إليه.

تقبَّلتُ حياتي الجديدة فى بيْت والدي؛ وصِفَة المُطلَّقة صارت من صفاتي، وزاد مُرُّ الأيام؛ انهيال التراب على ذكريات الماضي وحُبِّي المفقود، وزادَتْ مشاعري المكبوتة رُكودًا حتى كان اليوم الذى عاد فيه حبيبي.

اهتدَى إلى هاتفي؛ وحدَّثني قائلاً إنهُ علِم بتفاصيل كل شيء من صديقتي المُقرَّبة وزوجها الذي كان زميلاً لنا فى الجامعة، ثم سألني أنْ ألقاهُ على انفراد.

حرَّكَ اتصاله بداخلي نار الشَّوق التى كانت تخبُو تحت رُكام الذِّكريات، تردَّدْتُ كثيرًا قبل أنْ أذهب، لأدفن مشاعرى التي أيقظَها اتِّصاله بي ولا أهتم، فماذا عساي أن أقولَ لهُ وقد خُنتُ عهده لسببٍ أو لآخر ؟ ولكنني عجَزتُ عن مقاومة طُغيان لهفتي الجارفة عليه، ذهبتُ للقائه.

كان اللقاء عسيرًا، بذلتُ قصارَى جهدي لأقاوم مشاعري ونزَعَاتي، كنتُ أتمنَّى لو ألقيتُ بنفسي وهمِّي وأحزاني بين أحضانه؛ لأغتسِلَ من أوزاري فى بَحر حنانه

ولكنني تماسَكْتُ وتباعدْتُ، فما جدواه ولا أظنُّه قد جاءَ إلا ليتَشفَّى؛ أو يؤنِّبني على ما كان، ولكنه قابَلني بأعصابٍ هادئةٍ وابتسامةٍ أزاحت الرَّجفة عن قلبي؛ ونظراتٍ كلهاً حانية اعتبرتها إشفاق.

وقبل أن يتكلم، كنتُ كالمريب الذي يكادُ أن يقول خُذوني، رحتُ كمن يعترف بذنبه؛ أسوقُ الحجج وأردُّ كل ما كان إلى الظروف.

كان يستمع لحديثي جيدًا ولم يقاطِعني؛ حتى صِرتُ لا أجدُ من الكلام ما أقوله تبريرًا أو اعتذارًا مُقنَّعًا.

أنهيتُ كلامى، وخيَّمَ على المكان صَمتٌ رهيب، أردتُ قَطْع هذا الصَّمت؛ لأقطعَ عليه ما خِفتُ أنْ يقولُه لي، سألتهُ سؤالاً لا أريدُ له إجابة، بل إنَّ إجابتهُ معروفة، ولكن لإنقاذي من هذا الموقف:

ـ هل أنهيتَ دراستكَ أم أنكَ ستعود ؟

قال :

ـ إجازة لمدة أسبوعين، ولكنني مدَدْتُها لثلاثة شهور.

عُدْتُ لأسألهُ من قَبيل الثَّرثرة حتى ينتهي اللقاء:

ـ ولماذا مدَدْتُها ؟.

يصمُت لبُرهة، تنفرجُ شفتاه عن ابتسامةٍ صافية، يمدُّ يديه ليحتضن بهما يدَيَّ معًا .. يجيبُني :

ـ حتى تنتهى عِدَّتُكِ، ونعود معًا.

امتلاك

أكداسٌ حالكةٌ من القلق كانت تجثُم على نفسه، فما أجابته على لَطْمَتِها إلا بالصَّمتِ والصبر، يتساءل: هل هو صمتُ السُّكون الذي يسبق العاصفة؟ أمْ ستطلب الطلاق أو تخلع نفسها؟

أشْعلَ سيجارته وراح ينفُثُ دُخانها فى الهواء ليصنع الدُخانُ دوائر مُتداخلة، وسَط هذه السُّحب المتطايرة زاغ بَصره مهمُومًا يُسائل نفسه:

ـ أليْسَ حقًا شرعيًا؟ أحلَّ الله للرجل الزواج مرةً ثانيةً وثالثةً ورابعةً إنْ أراد، لو كان هذا مُؤذيًا للمرأة فلماذا أحلَّه الله؟

كاد القلق أنْ يفتكَ برأسه، يريدُ أن يَعرف ما يدور بذهنها، لكنها ما تغيَّرتْ قَط، تلك هى طبيعتها، لا تتكلم إلا إذا عزَمَتْ واستقرَّت على رأي.

استمَعَتْ إليه بصمتٍ تام، لم يَبدُ على وجهها أى ردّ فِعل يُذكَرْ، فقط رعشة فى طرف عينها اليُمنى، كان يعلم أنها علامة خَوف وترَقُّب؛ ثم قامَتْ إلى غرفة أطفالها.

بعد ليالٍ ثلاث جاءته تُخبِّئ حُزنًا وانكسارًا أوجَعا قلبه، أخبَرَتْهُ عدم امتلاكها القُدرة على التخلِّي عن وجوده في حياتها

أطرَقَ صامتًا أمام فَيْض انسانيتها تِجاه أسرتها؛ شاعرًا بالخِزي؛ لكنه لا يملِكُ تراجُعًا عن قراره.

تذكَّر أنه تزوجها بعد قصة حُبٍّ عنيفة تخلَّت فيها عن أهلها، وأنه ما زال يُحبها، ولكن لم يكَدْ الزمن يتقدم بهما؛ حتى بدأ يشعر بالروتين وبالملَلْ، ضرَبَ الفُتورُ علاقتهما فى الصَّميم، فلا يحس بحلاوة اللهفة ولا لذَّة الشَّوق، فباتَ يبحث عن حُب جديد.

لم يكن سَيِّئ الخُلق ولا مُفْرطًا فى مَلذَّاته، تقبَّل حياته بمللها ورتابتها؛ ولم يفكر فى الزواج من غيرها لو لم يُلقِ بها القَدَرُ فى طريقه.

كانت نِسمة رائعة الجمال، بوجهها العاجى المستدير وعينيها النجلاوَيْن، وشَعرها الذهبي، وقوامها الممشوق الذى لا يُقَاوَم.

رآها أولَ مرَّة حين استأذنَتْ فى الدخول قبل أن يبدأ محاضرته، قالت إنها تدرس فى الجامعة المفتوحة؛ وترغب فى الحُضور لمناسبة هذا الوقت لظروف عملها.

لم يملِك يومها كبْح جِماح ناظِريه؛ كانتا تزُوغان لتختلس إليهما بين الحِين والحِين نظرة، جمالها وثغرها الباسم بطبيعته

يُجبران - كائنًا مَن كان - على التطلُّع إليها مهما كانت الظّروف التى تُحيطُ بها.

ظنَّها فتاة لا تجَاربَ لها؛ إذ كانت تبدو أكثرَ براءة وصِغرًا فى المظهر عمَّن يجلسنَ من الفَتيات إلى جوارها.

أنهَى محاضرته وانصرفَ؛ وصورتها وابتسامتها؛ وسِعَة عيونها وانسدالُ شَعرها على كتفيها؛ وشُموخها فى جلستها لا تغادره.

وجدَ نفسهُ مُنساقًا إلى رُؤيتها مرَّة أخرى، كأنها لوحة بديعة تُريح أعصاب من ينظر إليها، وتُوحي بحُلو المشاعر والتفاؤل، بل شطَحَ في خياله فتمنَّى لو كانت محاضرتها التالية تَوًّا وليس الأسبوع القادم.

فى اليوم التالي وجدها تحتلُّ الصف الأول؛ وهو يُحاضر لفرقة دراسية أخرى، كانت أكثر تألقًا وجمالاً؛ وأبهَى زينة، جمالها الصارخ يُعلن فى حدِّ ذاته عن وجودها، لا تُكلِّف مَن يبحث عنها عَناء البحث.

كانت هي أوَّل من تلتقي به عيناه، راحتا ناحيتها لا إراديًا، قابَلتْهُ بابتسامةٍ رائقةٍ وتحديقٍ مُركَّز؛ كأنَّ نظرتها سَهْمٌ أُطلِق قاصدًا قلبه، كاد الارتباك اللَّحظيِّ من سِحر نظرتها

يبدو على ملامحه؛ لولا سَيْطرَ سريعًا على انفعاله، وأمسَكَ عن ابتسامةٍ؛ كانت قابَ قوسَين أو أدنَى من أن ينظر إليها بها مرَّةً أخرى.

في ومضة من الوقت راح يتساءل:

ـ تُرى هل جاءت لتلقاني؟ أم أنها راسبة في هذه المادة؟.

كان هذا التفكير يشغلهُ أثناء الدَّرس، كما كان يشغله كيف السَّبيلُ إلى أن يفتعلَ موقفًا يُمكِّنه من محادثتها وهي تنصرف.

لم يَطُل تفكيره، فقد كفَتْهُ عَناء اختلاق الموقف، بدأ الطلبة فى الانصراف وهي واقفة فى مكانها، اقتربَتْ منه رُويدًا رويدًا وما أن أوشك أن يكون وحيدًا؛ حتى بادرَته بصوتٍ عذب النَّبراتِ فيه بَحَّة زادت من حلاوته:

ـ جئتُ لأشكركَ على حُضوري بالأمس، ثم أردفَتْ ضاحكةً بذات العذوبة؛ وسلاسِل شعرها الذهبي تهتزُّ على كتفيها:

ـ لا تظنُّني راسبة فى هذه المادة.

ترجَّلا معًا حتى باب المصعد، وما بين انتظاره ومجيئه كانت أكثر جُرأة، طلبَت منه رقم هاتفه، مرةً أخرى تكفيه

مَغبَّة التفكير فى الوصول إلى طريقة يكسبُ بها خُطوة جديدة إلى عالمها.

بِضع دقائق مرَّت على تحرُّكه بسيارته؛ وإذا بهاتفه يرن، لم تَغِبْ عنه نبرات هذا الصوت الندىّ، ضحِكَتْ وبدلال قالت:

ـ هل تتخيل أنكَ أوحشتَنى.

تعجَّب، يا لَهذه الجُّرأة التى ربما لم يكن يقوَى علي مثلها، تلعثمَ فى الرَّد، لم يدرِ ماذا يقول، وقبل أنْ يُمازحها كما تُمازحه استطردَتْ تقول:

ـ لولا أنِّي استحيَتُ أن تُحرجني لعزمتُك على فنجان قهوة.

أجَمتْهُ المفاجأة، وقبل أن يُجيب؛ وجدها تستمر فى عرض اقتراحها:

ـ أعرفُ مكانًا شاعريًا جميلاً سيُعجبك، ما رأيكَ لو أنَّ وقتك يسمح بذلك؟

دون تفكير أجابها :

ـ وأنا قبلتُ قهوتك .. سأعودُ حالاً.

استقلَّت السيارة إلى جواره، التفتَتْ نحوَهُ وصارت فى مُواجهته؛ كانت ابتسامتها تزداد إشراقًا وابتهاجًا عما كانت عليه، بَلغَا مكانًا راقيًا هادئًا لم يعهده من قبل.

لم يدرِ فيما تحدَّثا؛ ولكن الوقت مرَّ سريعًا رغم استطالته لنحو ساعتين.

نسِيَ بيته، توالت بينهما اللقاءات، كان كلاهما لديه رغبة جامحة فى الحفاظ عليها وتكرارها، يحرصان عليها متى سمحت أوقاتهما أو يختلقانها.

وبرغم سعادته الغامرة؛ يشعر بانزعاج داخليّ، هل عاد ليتردَّى في الحب مرَّةً أخرى؟ وأى تردٍّ هذا وهو يندفع نحوها اندفاعًا جُنونيًا غير محسُوب العاقبة، وفي ذات الوقت لا يستطيع المقاومة، وإنْ كان كذلك فكيفَ وهى امرأة متزوجة؟ مَن المُخطئ؟ هُوَ أمْ هى؟ أم القَدَر؟ أو ثلاثتهم معًا؟.

ذات لقاءٍ حدَّثته عن نفسها، كانت متزوجة من شاب اختاره لها والدها على غير رغبتها من بين موظَّفي شركته؛ ثم راحت تنتظر أن يأتي الحب بعد الزواج كما أفهموها ساعتها؛ ولكنهُ لم يأتِ، وسرعان ما فترَتْ علاقتهما؛ كان يشعر بأنه غريبٌ فى هذا البيت، وبأنها لم ترَهُ زوجًا بقدر ما تراه واحدًا من موظفي شركة أبيها، أحسَّ أنَّ البيتَ ليس بيته، مالَ إلى أخرى وتزوَّجها، علمَت بزواجه السِّريّ فطردتْهُ من البيت ومن حياتها، كان بيتها وكل ما فيه كان ملكها، ثم ورثت عن والدها أموالا طائلة؛ ومشاريع تُدِرُّ دخلاً هائلاً.

صارت تَكرَه الزيجة الثانية، لا تحب إلا أن تكون زوجة وحيدة، كُتِب عليها أن تكتوي بنار تعدُّد الزِّيجات، فَعلَها والدها وتزوَّج على أُمها، فتَنَتْهُ شابَّة ممَّن التحَقْنَ بالعمل عنده بمُيوعتها وفوَرَان أنوثتها؛ وكان شرطها لتقبله؛ أن يُطلِّق أمها فطلَّقها، كان عُمْرها سنتين وعُمْر أختها أربعة، هجرهم تمامًا فذاقت اليُتم وأبوها حَيٌّ يتمرَّغ في النَّعيم، وليتَ الأمر قد توقَّفَ عند هذا الحد، بل تزوَّجت أُمُّها بآخرَ أذاقها قسوةً لا يتحمَّلها بَشَر؛ ولكن اضطَّرت أُمُّها أن تَعيش.

طلبَتْ الطلاق من زوجها فرفض، لا يُريد مغادرة شركة والدها ولا ما يحظَى به من نَعيم في بيتها، أقامت دعوَى خُلع وكانت محجوزة للحكم بعد عشرين يومًا.

ثم عرَجَتْ لتتحدث عنه؛ كيف رأتْهُ قبلَ أنْ تُقابلهُ فأردفَتْ :

ـ هل تتخيَّل أنِّي أحببتُكَ قبل أنْ أراك؟ كان زملائي يحضرون محاضراتك؛ ويذكرون مِرارًا وتكرارًا مدَى محبَّتهم لشخصكَ وذكروا كثيرًا من صفاتك.

لا تعجَب لجرأتي، ولكن لمَ لا ؟ كم سنعيش من العُمْر في هذه الدنيا؟ لمَ لا نَفعل ما نراهُ سيُسْعدنا؟ أراكَ مُنجذبًا إليَّ

بقُوة، بل أقولُ أحبَبْتَني من أول نظرة كما يقولون، فللحب علامات أنا أعرفها؛ وهي واضحة عليك؛ لا تُنكر ذلك، وإن أنكرْتَ فلن أصدِّقك، فكَّرتُ بجدية فى أن أتزوجك، قُل إنكَّ مُوافق.

انصرَفَ من هذا اللقاء النَّاري بمشاعر متضاربة؛ كانت خليطًا من الفرح الظاهر والحزن المستتر، هل يفرح وينتشي للفوز بهذه الفاتنة قوية الشخصية؛ جريئة القرار؟ أم يحزَن لفشله فى احتفاظه بزوجته؟ لم يكن أمامَهُ إلا الانسياق لرغبته، فمَن الذى يستطيع مقاومة جمالها؛ فتزوجها.

أدخَلَتْهُ عالمها السَّحريّ، منحَتْهُ ما لم يحلُم به يومًا مِن فُنون الهوَى، أهدَتْهُ الكثير والكثير، حاوَلتْ جاهدةً تغيير نمط حياته والسَّيطرة عليه، آخِر هداياها له كانت ساعة ذهبية تساوي ثمن سيارة.

ولكن لم تمض عدَّة شهور؛ حتى ظنَّت أنها تمكنَّت من عقله وجسده، ألمحَتْ إليه بأنها تريده لنفسها خالصًا، تغافَل عن تلميحاتها، أعلنَتْ نيَّتها صراحة: إمَّا أنا؛ بكل ما آتيتُكَ من مُتعة وتَرفْ؛ وإمَّا هي.

تجاهَلها وانصرَف، كانت تعلم أنه موعد زيارته لأولاده وزوجته الأولى، تَبِعَتْهُ، فاجَأتهُ بحضورها، لم تكترث بوجود

زوجته وأولاده؛ اتجَّهت إليه بأعصابٍ باردةٍ تُكلِّمهُ وقد رفعَتْ سبَّابتها في وجهه :

ـ لِمَ انصرفْتَ قبلَ أن تُجيبَ طلَبي؟ ها أنا أقولُها لكَ أمامها ولتحْسِمَ أمرَكْ حالاً فى مواجهتها، إمَّا أنا وإمَّا هي، وإلاّ تَرحَلْ؛ وأرني كيف ستعيش بالملاليم التى تتقاضاها من الجامعة؟

أطرَقَ قليلاً وعيناه زائغتان كأنه يُفكر، اتَّجه بناظريه إلى أُمِّ أولاده، ذُعرٌ شديدٌ فى عينيها، كانت عيناها تتعلقان به فى صَمْت، كأنهُ يتأمَّلُها لأول مرَّة، كان الحنين يبدو فى عينيه، ربتَتْ على كتفه بهدوء والعَبرات تنحدر فى صمْتٍ على خدَّيها، ضمَّها إليه، وربت على ظهرها.

عاد ببصره إلى تلك المتجبِّرة، امْتقعَ لونُها، تقلَّصَتْ عضلاتُ وجهها وهى تضغط على فكَّيها، كان يراودها إحساسٌ قوي بأنه سَيفْعَل، وكانت تُمنِّى نفسها برؤية زوجته حال إيقاع الطلاق بها.

بملامح تُعبِّر عن الاحتقار يُطيل إليها النَّظَر فى صمت، يخلع الدِّبلة والسَّاعة الذهبية، يَقترب منها، يُلقي بهما تحت قدَميْها فى عُنف.

الأستاذ

سعَيْتُ للقائهِ في صومعتهِ التي اشتُهرَت في المدينة، كانت محرابَ حَبْر؛ أو زاوية صُوفيّ، كتبٌ متنوعة عن اليمين وعن الشِّمال، فوق المكتب ومن تحتِه ومن حولِه، وعلى الأرفُف وفى الأدراج، بل كانت مثل كعبة يَطَّوَّفُ بها كلّ عاشق للفلسفة والأدب؛ مُولَع في الإبْحار ببحور المعرفة، إنْ كان تلميذًا من تلاميذه، أو كاتبًا لم يزل يحبو على عتَبات الأدب، ومَن اشتُهر في أوساط ثقافة جَوفاء.

يغترفون من بحر علمهِ أديبًا ومُفكِّرًا وناقدًا وحكيمًا، سبعينيٌّ مُخضرَم عركتْهُ الحياة وعرَكَها.

تكرَّرَت اللقاءاتُ بيننا، ونما ودٌّ ممزوجٌ بتوقيرٍ لشخصه مما جعلهُ يُصدر تعليماتٍ لحارس مكتبه بدخولي متى حضَرتُ إليه؛ ودونما استئذان، وحينما يلمحني الحارس قادمًا؛ يُشير بكفِّه الممدود وابتسامته المُشرقة لأَدخل؛ حتى في غير ساعات تواجده؛ ويقول إنها تعلميات الأستاذ.

كم تجاذَبنا أطراف الأحاديث في مواضيع شتَّى، الآداب قصصها، رواياتها، شِعرها، سردياتها، نقدها، وما يكون مطروحًا على الساحة؛ من أحوال العباد والبلاد، هموم الحياة، الموسيقى، الفن، الفنانين، الزمن الجميل، وغيره وغيره كثير.

كنتُ أعمَدُ طرح أسئلةٍ إشكاليّة؛ فأجدُ عنده رُؤىً خاصة تُشبعُ نهمي إلى المعرفة؛ لم أجدها عند أقرانه فى ذات تخصُّصهِ المعروف به.

كان يسْخَر من أولئك الذين أسماهم العابثين من بني مِهنته؛ المستهينين بأنوثةٍ خلقَها الله لتشيعَ الحياة والحُبّ، كان يقول لي:

ـ هذا لا يليق بأساتذة جامعيين، وكنتُ أجيبه:

ـ النساء هُنَّ الحياة.

لم أتوصَّل لجواب عن سِرَّ إطراقه أمام حسناواتٍ من طالباته؛ حينما يجلسن إليه فى مكتبه؛ إذ يخفض ناظريه طوال الوقت، بَيدَ أنَّ عينيه لم تكونا تُطاوعانه كثيرًا عل الإطراق، هذا ما لاحظتُه؛ عندما كانتا تزوغان لتختلس منهنَّ نظراتٍ جائعة، ولَّما كُنتُ أُحوِّمُ حول ذلكَ بأسئلتي، كان يتوارَى خلف ابتسامة ورِعَة، تُجبرني على السُّكوت.

ذاتَ مرّة استجابَ لإلحاحي بالأسئلة عن طفولته؛ حكَى لي عنها، كان والده شيخ كُتَّاب القرية، ربَّاه تربيةً خاصة؛ كان يُعنِّفهُ كلما قبَّل أمَّه أو أخواته فى مناسبةٍ ما، ضبطَهُ في صباه واقفًا مع زميلته فى الإعدادية على ناصية الشارع يتضاحكان

جرَّهُ من ياقته أمام ناظريها إلى البيت، وهناك قام بتَعليقه فى الفَلَقة التى ما زال يحتفظ بها منذ ذلك العصر، وحينما حاولَتْ أُمّه أن تذودَ عنه؛ لاقَتْ نصيبها من الضَّرب المُبرِّح، فسَعَى لطرد الأنثى من تفكيره؛ وأضْحَت محظورًا اجتماعيًّا فى أحاديثه، لا يستطيع ذِكر سيرتها فى حضور والده، فانصرف إلى التحصيل العِلميّ الذي أيّدَه أبوه به، وفاخَر بحصوله على درجة الدكتوراه، حتى لما حان وقت زواجه خشي أن يُفاتحه فى الأمر، فلجأ إلى أُمّه وسيطًا بينهما.

ذهبتُ إليه ذات مرَّة دون موعدٍ سابق، كان العامل مُحاطًا بكوكبة من الطُّلاب يثيرون ضوضاءَ لم أعرفْ سببها؛ فأشار إليَّ بالدخول.

طرَقْتُ البابَ برفقٍ فلَم أتلقَّ إجابة، أو ربما لم أسمَع الإجابة من هذه الجَلبة، أدرْتُ مقبض الباب بهدوءٍ ودخَلْت مِلتُ برأسى قليلاً حين بلغْتُ نهاية الممَر الذي يفتح فيه الباب، وجدتُ مكتبه خاليًا منه، جلسْتُ على أحد المقعدين الكائنين أمام المكتب كعادتى.

مَرَّت لحظات؛ دقيقة، دقيقتان، لا أذكُر، حدَّثتني نفسي أنْ ألتقطَ كتابًا أسُلِّي به نفسي حتى يعود، اتجهْتُ إلى الأرفُف

الواقعة خلفَ المكتب، خَمَّنْتُ أنَّ الكُتب الأحدث إصدارًا ستكون عليها، بحرَكتي تلك؛ يكون على يميني عُمقٌ فى الغرفة مَسدُود النهاية؛ مما يُسمَّى فى عالم المعمار "جَيْب".

نصَبْتُ قامتي أمام الأرفف، رفعتُ ناظرىَّ عاليًا، بدأتُ بالرَّف الأعلى نُزولًا إلى ما يليه، كلُّ تركيزي كان فيما أُتابع.

الصمتُ يُطبقُ على المكان، فجأةً أصواتُ حركةٍ فُجائية تتَناهَى إلى سَمْعي، ارتباكُ ودَبدَبة أقدام أشعرُ بقربها مِنّي؛ فحيحٌ كفحيح الأفعى يتناهَى إلى سَمْعي، صوتان هامسَان متداخلان؛ يتلجْلجَان بتمْتَماتٍ غير مفهومة.

ألَّتْ بي رَجْفة خاطفة على حين غرَّة، تساءلتُ:

ـ هل المكان مَسْكونٌ بالعفاريت كما يقولون؟

عادتْ ذراعي الممدودة نحو الرَّفِّ بسرعة البرق إلى مكانها، وجَّهتُ ناظرىَّ صَوْبَ الصوت، تَحجَّرَتْ عينايَ فى نظرةٍ ثابتةٍ على ما وقعَتْ عليه، الأستاذ يدور حول نفسه مُنكَّس الرأس؛ يتلمَّسُ من الطُّرقة سبيلاً لمغادَرتها، وفتاة عشرينية فارهة تُلملم أشلاء نفسها وما عَلا من ملابسها، كانت أسرَع من أستاذها؛ فغادَرَتْ فى ثوانٍ معدودة.

عدتُ أدراجي لأجلسَ على مقعدٍ أمامه، وليجلس هو إلى مكتبه فى صمْت، عَلتْ وجههُ جميع ألوان الطَّيْف؛ وزاغَتْ عيناه، رفعتُ بصري، نظرتُ إلى صورته المُتجهِّمة المعَلَّقة من خلفه على الحائط، وعُدتُ لأُحدِّق فى وجهه المكسُو بقناعٍ من الوَرَع والحِكمة، وغادرتُ من دون أنْ ألتفت خلفي.

عُهرٌ وإيثارٌ

جمعَنا عقارٌ واحد بأمِّي وباقي إخوَتي، وبالتالى استمرَّتْ مضايقات أُمِّي لها على طول المدَى، لم تتركها يومًا فى حالها أذاقتْها من كل صُنوف النَّكد، وصدرَتْ منها تعليمات بأنْ يَترك كل ساكن مِنَّا مفتاح شقَّته فى الباب من الخارج؛ فتدخُل وتخرج علينا كما يحلو لها، حتى الخُصوصية الطبيعية لم تنعم بها زوجتي.

لا أُنكرُ أنها أحبَّتنى بجنون؛ وأنا كذلك، حُوربْنا من أسرَتيْنا، لم يُريدا لنا زواجًا، قاومْنا، تمسَّكنا، انتصرنا، وفى النهاية تزوَّجنا.

انعكسَتْ مُضايقات أُمِّى لها على علاقتنا، ولكنِّى كُنتُ أُرَوِّحُ عنها ما استطعتُ وأعتذرُ لها وأُرضيها.

فى الآونة الأخيرة خَيَّمَ عليها الحزنُ والأسَى بدرجةٍ عالية، اختفَت ضحكتها، تلاشَت ابتسامتها، لا أجدها إلا مهمومة مكدودة حزينة طيلة أوقاتها، انطفأ بريقُ عينيها؛ تَغيَّر لون وجهها، صار خدَّاها وكفَّاها يتلازمان كلما خَلَتْ إلى نفسها، وكذلك فى أحيانٍ كثيرة وهى تجلس معي، هكذا اعترفَ الزَّوج بفشلهِ فى تبديد هذا الذى ألمَّ بزوجته.

فى ذلك اليوم حين عادَ من عمله، حدَّثها فلم تنطِق، اقتربَ منها ليربُتَ على كتفها دفعَتْ يده، مدَّ يدهُ ليرفعَ وجهها ناحيته ليُضاحِكها دفعَتْهُ مرَّة أخرى، ولكن فى هذه المرة بقوة، صفَعَتْهُ صفَعَها، دفَعتهُ دفَعَها، أخلَّت الدَّفعة باتزانه فسقطَ أرضًا بطريقة مُهينة.

فقدَ حُلمهُ، استشاطَ غَضبًا، غابَ عنهُ وعيهُ، لم يُميِّز مَن تلك التى تُواجههُ، جذبَها من غِطاء رأسها الملفوف حول عُنِقها، كانت يداه وهى تجذبُ تَضْغط فى ذات الوقت على عنُقها دون أن يدري، لم يستطيع تحديد كم من الوقت مرَّ وهو على هذه الحالة، فجأة تتهاوَى أرضًا من بين يدَيه بلا حِراكٍ، صرَخَ : لا تموتى .. لا تتركينى .. أغيثونى.

هُرعَت إليه أُمّه من الطابق الأرضي، أمسكَتْ بيدها نظرَت فى عينيه، قالت:

ـ ماتَت.

هكذا استكملَ اعترافه، ولكن تُسمَعُ شهادة أُمِّ القتيلة فى حُضوره، رواياتٌ عَما كانت تُلاقيه ابنتها من عذاب حماتها؛ لا يُصدِّقها عقل، أفعالٌ لا يتخيل أحدٌ حدوثها لو راحَ يَستدعى زمانَ الجهل والفقر.

تسترسلُ أمُّها فى الحَكْي، كل أقصوصة تقصُّها تحمل فظاعةً أبشَع من سابقتها، حتى يُخَيَّل لمن يستمع أنها قِمَّة التَّجنِّي، يستوقفها القاضى بإشارة من يده؛ ويُوجِّه حديثهُ للزَّوج القاتل :

ـ هل حدثَ ما تسمعهُ؟

يُجيب بصوتٍ جريح وعيناه تذرفان دمعًا حزينًا:

ـ وأفظَعْ من هذا قد حدَثْ.

كان الضابط الذي أجرى التحريات حاضرًا، بادَر قبلَ مناقشتهِ إلى تقديم أسطوانة مُدْمَجَة، قال إنَّ فيها معلومات جديدة؛ ولديه تحريات أخرى تؤكدها.

لمحَ الشاب ما حدَث وهو فى القَفص؛ وانتهي إلى سَمعِه ما قاله، جحَظتْ عيناه، انتفضَ فى موقعه، صاح بصوتٍ صار من هَوْل المفاجأة مُرعبًا، خاطبَ الضابط وهو يهُزُّ فى حديد القفص وكأنه يودُّ اقتلاعه من مكانه :

ـ حرام عليك .. حرام عليك، ثم راح فى نوبة بكاء.

كان القاضى قد ألقَى نظرة على التحريات المقدَّمة مع الأسطوانة، فرَفَع الجلسة ليَستكمِل فى غرفة المداولة.

أمرَ بإحضار مُشغِّل أسطوانات، مَقْطَع واضح الصوت جيد التصوير، مشادة كلامية وعبارات حادة من قذفٍ وسَب ثم مُشاجرة وتشابُكٌ بالأيدي.

امرأة خمسينية ورجل فى عُمْرٍ يُناهز عُمْرها كطرَف والقتيلة كطرَف آخر، ضرباتٌ بالأيدى تُكال لها، يتقاذفها الرَّجل والمرأة دفعًا وصفعًا فيما بينهما، يُسمَع صوتُها يقُول:

ـ اتركانى ولن أتكلم.

تجذبُها المرأة من غِطاء رأسها الملفوف جزء منه حول رقَبتها؛ ويَتدلَّى طرفاه على صدرها، ذات الصوتُ يقول:

ـ لا تقتلانى .. لا تقتلانى.

تستمر المرأة فى شَدِّ طرَفَيّ الغِطاء فى عكس اتجاه بعضهما، تُحاول القتيلة المُقاومة، يُمسِك الرجل بيديها ويُغلُّهما خلفَ ظهرها، تُوالى المرأة الشَّد، تتهاوَى القتيلة أرضًا، ينتهي المقطع، ثم يُسمَع صوتُ إغلاق باب.

يُكمِل الضابط رسم باقي أبعاد الصورة، جارة القتيلة فى العَقار المواجه سمِعَتْ المشاجرة، كان باب البلكونة مفتوحًا صوَّرَتْ من خلاله مقطع الفيديو بهاتفها النقَّال، لم تستطع مقاومة كِتمان شهادتها، هُرِعَت إلى الضابط بالأسطوانة المُدمجَة.

أعاد الضابط جمع معلوماته، واجَه الأمّ بالأسطوانة وضيَّق عليها الخِناق بالمعلومات، فاعترفَتْ.

عادَت القتيلة إلى شقَّتها لتجدَ حماتها وذلك الرجل فى سريرها، هالها ما رأتْ، صرخَتْ صرخةً مُدوِّية، ثم توالتْ بعدها أحداث ما حوَتْهُ الأسطوانة، حمَلا الجثة ووضعاها فى سريرها، دخلَ الزوج إلى شقته، يحسَبُها مَغشيًا عليها، استنجدَ بمَن فى العقار، هُرِعتْ إليه أُمّه رابضة الجأش مُتحجِّرة المشاعر، أسَرَّتْ له فى أذنيه أنها التى خنَقتْها إذ أهانتها أثناء زيارة جارهم لها.

سمِع ذلك من أمّه وأكملَ رسم أبعاد الصورة فى ذِهنه، كانت زوجته قد ذكرَتْ له تلميحًا عن علاقة غير لائقة بين أمِّه وهذا الجار، ولكنها لم تُصرِّح بها؛ بل ظنَّها افتراءاتٍ لخُلفهما معًا.

كان واقفًا مُطأطِئ الرأس دُموعه تَنهمِر، لم ينطِق بحَرف وهو يَستمع إلى شهادة الضابط بالمعلومات اللاحقة.

يسأله القاضى:

ـ أتحملُ وِزرها وهذا سُلوكها؟

اجتهدَ في رَفْع وجهه الذى تَدَلَّى على صدره حتى استطاع مواجَهتهُ، ليُجيبَ بصوتٍ كسيرٍ مَحزون :

ـ ولكنها أمِّي!

المؤَلِّف فى سُطور

- عضو اتحاد كُتَّاب مصر.
- عمل وكيلاً للنائب العام فى أرياف مصر فى مُنتصف الثمانينيات.
- ثم قاضيًا بمحكمة الإسكندرية الابتدائية.
- ثم رئيسًا لنيابة الدخيلة الجزئية، ثم نيابة كفر الشيخ الكلية.
- ثم مستشارًا .. فرئيسًا بمحاكم جنايات بنى سويف . طنطا العريش .. الإسكندرية .. الإسكندرية الاقتصادية وكفر الشيخ.
- مُحاضِر بكلية الحقوق جامعة الإسكندرية.
- صدرَ له مجموعتان قصصيتان "يوميات وكيل نيابة" و"يوميات قاضٍ" (منشأة المعارف بالاسكندرية).
- وسَردٌ شاعرى : "الحب بعد المداولة" و "من فَيض الخاطِر" (منشأة المعارف بالاسكندرية).

الفهرس

- إنتصار حُب ٩
- طريق آخر ١٧
- من جديد ٢١
- برجولا ٢٣
- وظلَّت تنتظر ٣٥
- الزوجة ٤٣
- نهاية عَزاء ٤٩
- أنوثة مَنسيّة ٥١
- عَبَق زَهرة ٥٣
- الزيارة انتهَتْ ٥٥
- وتستمر الحياة ٥٩
- خارج المَشهد ٦٥
- أمومَة ٦٩
- صَهيلُ امرأة ٧٥
- امتلاك ٨٣

▪ الأستاذ ٩٣
▪ عُهرٌ وإيثار ٩٩
المؤلف في سطور ١٠٥
الفهرس ١٠٧

تم بحمد الله